

ناحية من حياة
 شيخ الإسلام ابن تيمية
 (٦٦١-٧٢٨هـ)

بقلم خادمه
 إبراهيم بن أحمد الغياني

حققه وعلّق على حواشيه
 راجي غفران المساوي
 أبو عبد الرحمن محمود بن عبد الخالق
 السعداوي

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة التحقيق

الحمد لله ، وسبحانه الله وبحمده، تقدّس في علوه وجلاله، وتعالى في صفات كماله، وتعظم في سُبحات فرادنيته وجماله، وتكرّم في إفضاله وجماله ونوّاله ،جَلَّ أَنْ يُمَثَّلَ بشئ من مخلوقاته ، أو يحاطَ به، بل هو المحيط بمبتدعاته ، لا تُصَوِّرُهُ الأوهام ، ولا تُقِلُّه الأجرام ، ولا يعقل كُنْهَ ذاته البصائر، ولا الأفهام .

الحمد لله مؤيد الحق وناصره، ودافع الباطل وكاسره، ومُعز الطائع وجابره، ومُذِلّ الباغي ودائره^(١) ، الذي سعد بحظوة الاقتراب من قُدْسِهِ مَنْ بأعباء الاتباع في بناءه وأُسِهِ ، وفاز بمحبوبيته في ميادين أنسه ، من بذل ما يهواه في طلبه من قلبه وجِسِّه وتثبت في مهامِهِ^(٢) الشكوك منتظراً زوال لبسه، وسبحانه وبحمده له المثل الأعلى ، والنور الأتم الأجلّى ، والبرهان الظاهر في الشريعة المُثَلّى .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، الذي شهد لوحْدانيته الفِطْرَ، وأسلم لربوبيته ذو العقل والنظر ، وظهرت أحكامه في الآي والسور ، وتمّ اقتدراه في تنزل القدر .

وأشهد أنَّ محمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ، الذي شهدت بثبوته الهواتف والأخبار، فكان قبل ظهوره يُنتظر ، وتلاحقت عند مبعثه معجزاته من حنين الجذع وانقياد الشجر، صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أهل الخشية والحذر، العلم المنور، فهم قدوة التابع للأثر^(٣).

(١) دائره : مهلكه

(٢) مهامه : جمع مهمه ، وهي المفازة البعيدة .

(٣) أنظر : التذكرة الاعتبار والانتصار للأبرار للشيخ عماد الدين أبي العباس أحمد بن إبراهيم الواسطي المعروف بـ " ابن شيخ الخزاميين " (ت ٧٧١هـ) ، طبع : دار هند السلفية ، ط ١ سنة ١٤١٠هـ / ١٩٨٩ م ص ١٣ .

فهذه الرسالة النفيسة أول من نشرها العلامة المحقق محب الدين الخطيب رحمه الله تعالى سنة ١٣٦٨ هجرية ، وقد عثر عليها في مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق في مجموع كبير باسم (الكواكب الدراري في ترتيب مسند الامام أحمد على أبواب البخاري) لابن عروة الحنبلي الدمشقي وقد وصل هذا الكتاب المخطوط إلى مائة وخمسين مجلداً كبيراً ، وحُفظ في دار الكتب الظاهرية بضعة وأربعون مجلداً وإنَّ كتباً كثيرة من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ورسائله إنَّما استخرجت من هذا المخطوط ، وفي سنة ١٣٢١ من الهجرة النبوية الشريفة قد عثر على هذه الرسالة في المجلد الحادي والأربعين من (الكواكب الدراري) المجلد (٤١/ق ١٢٥-١٣٠)، (مخطوطة الظاهرية ٥٨٧) على مذكرات خادم شيخ الإسلام ابن تيمية أحمد بن إبراهيم الغياني ^(١) ، لا يُغني عنها ما كتبه الكاتبون وألفه المؤرخون في ترجمته ، وهو كما قال -رحمه الله تعالى- ، وقد نشر هذه الرسالة وطبعها للمرة الأولى فقط بالقاهرة سنة ١٣٦٨ هجرية بالمطبعة السلفية ، وقد طُبعت الرسالة على وجه السرعة وكانت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحتاج إلى تخريج ، وشرح لبعض العبارات كما قد وقع تحريف لبعض الكلمات ، وتصحيف في كلمات أخرى وأخطاء مطبعية لا يخلو منها كتاب ، فكانت الرسالة تحتاج إلى ثوب جديد ، يليق بها وبعض الحواشي والتعليقات المفيدة مع المحافظة على جميع الحواشي والتعليقات للعلامة محب الدين الخطيب رحمه الله تعالى ، وأما عملي في الرسالة فقد جاء على النحو التالي :

(١) لم أقف على ترجمته ، ومؤلف كتاب (معجم أصحاب شيخ الإسلام ابن تيمية) ص ٢٨ ، لم يعثر له على ترجمة بل كتب "إبراهيم بن أحمد الغياني". (.... / ...) هو الملقب بخادم شيخ الإسلام، كان يخدمه ويصاحبه، خدمه في سجنه، وله فصل في حكاية تكسير شيخ الإسلام للحجارة التي كان يزورها الناس ويتبركون بها، وهو بأكمله في الكواكب الدراري، والجامع لسيرة ابن تيمية."

عَملي في الرسالة :

- ١ . تخريج الآيات القرآنية .
 - ٢ . تخريج الأحاديث النبوية الشريفة وبيان درجاتها والحكم عليها .
 - ٣ . تصحيح الأغلاط الإملائية والأخطاء النحوية التي وردت في الطبعة الأولى للرسالة .
 - ٤ . الترجمة المختصرة لبعض الأعلام المهمة الواردة في الرسالة .
 - ٥ . بيان معاني الألفاظ الغامضة ، والتعليقات المفيدة .
 - ٦ . تصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها العلامة المحقق محب الدين الخطيب رحمه الله تعالى .
 - ٧ . ترجمة وافية لحياة شيخ الإسلام ابن تيمية وبيان المؤلفات والمراجع التي ترجمت لحياته ، وثناء العلماء عليه .
 - ٨ . المحافظة على تعليقات وحواشي العلامة محب الدين الخطيب وكتبت بجوارها كلمة (محب الدين) .
- وفي الختام أرجو من الله القبول، وأن تكون هذه الرسالة النفيسة قد تم إخراجها على وجه يليق بأهمية هذه المذكرات التي تكتب بماء العين ،(رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (سورة البقرة / ١٢٧) . وكتبه،،،

راجي غفران المساوي

أبو عبد الرحمن محمود بن عبد الخالق السعداوي

تم النسخ والتعليق في شهر شعبان المبارك ١٤٤٢ من الهجرة الشريفة الموافق شهر أبريل ٢٠٢١ ميلادية

ترجمة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

مولده ووفاته :

ولد يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول بحران سنة ٦٦١ هـ، ولما بلغ من العمر سبع سنوات انتقل مع والده إلى دمشق؛ هرباً من وجه الغزاة التتار ، وتوفي ليلة الاثنين العشرين من شهر ذي القعدة سنة (٧٢٨) هـ وعمره (٦٧) سنة.

نسبه:

هو شيخ الإسلام الإمام أبو العباس: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد ، بن الخضر ، بن محمد بن الخضر ، بن علي بن عبد الله ابن تيمية الحراني ثم الدمشقي.

نشأته :

نشأ في بيت علم وفقه ودين ، فأبوه وأجداده وإخوته وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير ، منهم جده الأعلى (الرابع) محمد بن الخضر ، ومنهم عبد الحليم بن محمد بن تيمية ، وعبد الغني بن محمد ابن تيمية ، وجده الأدنى عبد السلام بن عبد الله ابن تيمية مجد الدين أبو البركات صاحب التصانيف التي منها : المنتقى من أحاديث الأحكام ، والمحرر في الفقه ، والمسودة في الأصول وغيرها ، وكذلك أبوه عبد الحليم بن عبد السلام الحراني ، وأخوه عبد الرحمن وغيرهم.

ففي هذه البيئة العلمية الصالحة كانت نشأة صاحب الترجمة ، وقد بدأ بطلب العلم أولاً على أبيه وعلماء دمشق ، فحفظ القرآن وهو صغير ، ودرس الحديث والفقه والأصول والتفسير ، وعرف بالذكاء وقوة الحفظ والنجابة منذ صغره. ثم توسع في دراسة العلوم وتبحر فيها ، واجتمعت فيه صفات المجتهد وشروط الاجتهاد منذ شبابه، فلم يلبث أن صار إماماً يعترف له الجهابذة بالعلم والفضل والإمامة ، قبل بلوغ الثلاثين من عمره.

خصاله :

بالإضافة إلى العلم والفقه في الدين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قد وهبه الله خِصَالاً حميدة ، اشتهر بها وشهد له بها الناس ، فكان سخياً كريماً يؤثر المحتاجين على نفسه في الطعام واللباس وغيرهما ، وكان كثير العبادة والذكر وقراءة القرآن ، وكان ورعاً زاهداً لا يكاد يملك شيئاً من متاع الدنيا سوى الضروريات ، وهذا مشهور عنه عند أهل زمانه حتى في عامة الناس ، وكان متواضعاً في هيئته ولباسه ومعاملته مع الآخرين ، فما كان يلبس لا الفاخر ولا الرديء من اللباس ، ولا يتكلف لأحد يلقاه ، واشتهر أيضاً بالمهابة والقوة في الحق ، فكانت له هيبة عظيمة عند السلاطين والعلماء وعامة الناس ، فكل من رآه أحبه وهابه واحترمه ، إلا من سيطر عليهم الحسد من أصحاب الأهواء ونحوهم.

كما عرف بالصبر وقوة الاحتمال في سبيل الله ، وكان ذا فراسة وكان مستجاب الدعوة ، وله كرامات مشهودة ، رحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته.

كرامات ابن تيمية:

بوَّب به العلامة الجليل عمرُ بن علي بن موسى بن خليل البغداديُّ الأزجي البزار، سراج الدين أبو حفص (المتوفى: ٧٤٩ هـ)، في كتابه الرائع الرائق "الأعلام العلية، في مناقب ابن تيمية"، وهو يترجم لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله:

"في ذكر بعض كراماته وفراسته":

قال: (أخبرني غير واحد من الثقات ببعض ما شاهده من كراماته، وأنا أذكر بعضها على سبيل الاختصار، وأبدأ من ذلك ببعض ما شاهدته:

فمنها اثنان:

- جرى بيني وبين بعض الفضلاء منازعةٌ في عدة مسائل، وطال كلامنا فيها، وجعلنا نقطع الكلام في كلّ مسألة بأن نرجع إلى الشيخ وما يرجحه من القول فيها، ثم إن الشيخ رضي الله عنه حضر، فلما هممنا بسؤاله عن ذلك، سبقنا هو وشرع

يذكرُ لنا مسألةً مسألةً، كما كنا فيه، وجعل يذكرُ غالب ما أوردناه في كل مسألة، ويذكر أقوال العلماء، ثم يُرجِّح منها ما يُرجِّحه الدليل، حتى أتى على آخر ما أردنا أن نسأله عنه، وبَيَّن لنا ما قصدنا أن نستعلمه منه، فبقيت أنا وصاحبي ومَن حضرنا أولاً مبهوتين متعجِّبين مما كاشفنا به وأظهره الله عليه، مما كان في خواطرنَا. - وكنتُ في خلال الأيام التي صحبتهُ فيها إذا بحث مسألة يحضر لي إيرادٌ، فما يستتم خاطري به حتى يشرعَ فيُورده ويذكر الجواب من عدة وجوه!

وحدثني الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن الحريمي أنه سافر إلى دِمَشق، قال: فاتَّق أني لَمَّا قدِمْتُها لم يكن معي شيء من النفقة البتة، وأنا لا أعرف أحدًا من أهلها، فجعلت أمشي في زقاق منها كالحائر، فإذا بشيخ قد أقبل نحوي مسرعًا، فسَلَّم وهشَّ في وجهي ووضع في يدي صُرَّةً فيها دراهم صالحة، وقال لي: أنفقْ هذه الآن، وخلي خاطرك مما أنت فيه، فإن الله لا يُضيعك، ثم ردَّ على أثره كأنه ما جاء إلا من أجلي، فدعوت له وفرحتُ بذلك، وقلت لبعض من رأيته من الناس: من هذا الشيخ؟ فقال: وكأنك لا تعرفه؟ هذا ابن تيمية، لي مدة طويلة لم أره اجتاز بهذا الدرب، وكان جل قصدي من سفري إلى دمشق لقاءه، فتحققت أن الله أظهره عليَّ وعلى حالي، فما احتجت بعدها إلى أحدٍ مدة إقامتي بدمشق، بل فتح الله عليَّ من حيث لا أحتسب، واستدللتُ فيما بعد عليه وقصدتُ زيارته والسلام عليه، فكان يكرمني ويسألني عن حالي، فأحمد الله تعالى إليه.

وحدثني الشيخ العالم المقرئ تقي الدين عبد الله، ابن الشيخ الصالح المقرئ أحمد بن سعيد، قال: سافرت إلى مصرَ حين كان الشيخ مقيمًا بها، فاتَّق أني قدِمْتُها ليلاً وأنا مثقل مريض، فأُنزلت في بعض الأمكنة، فلم ألبث أن سمِعْتُ من ينادي باسمي وكنيتي، فأجبتهُ وأنا ضعيف، فدخل إلي جماعة من أصحاب الشيخ ممن كنت قد اجتمعت ببعضهم في دمشق، فقلت: كيف عرفتم بقدومي وأنا قدِمْتُ هذه الساعة؟

فذكروا أَنَّ الشيخ أخبرنا بأنك قدمت وأنت مريض، وأمرنا أن نُسرِعَ بنقلك، وما رأينا أحدًا جاء ولا أخبرنا بشيء، فعلمتُ أن ذلك من كرامات الشيخ رضي الله عنه.

وحدثني أيضًا، قال: مرضتُ بدمشق إذ كنتُ فيها مرضةً شديدة، منعّني حتى من الجلوس، فلم أشعر إلا والشيخ عند رأسي، وأنا مثقل مشدّد بالحمى والمرض، فدعا لي وقال: جاءت العافية، فما هو إلا أن فارقتني وجاءت العافية وشُفيت من وقتي.

وحدثني قال: قد كنت أستكتب شعرًا لبعض من انحرف عن الحق في الشيخ قد تنقّصه فيه، وكان سبب قوله ذلك الشعر أنه نُسب إلى قائله شعرٌ وكلامٌ يدل على الرفض، فأخذ الرجلُ وأثبت ذلك عليه في وجهه عند حاكم من حكام الشرع المطهر، فأمر به، فشهر حاله بين الناس، فتوهم أن الذي كان سبب ذلك الشيخ، فحمّله ذلك على أن قال فيه ذلك الشعر، وبقي عندي، وكنت ربما أورد بعضه في بعض الأحيان، ف وقعت في عدة أشياء من المكروه والخوف متواترة، ولولا لطف الله تعالى بي فيها لأتت على نفسي، فنطرت من أين دُهِيت، فلم أرَ لذلك سببًا إلا إيرادى لبعض ذلك الشعر، فعاهدتُ الله ألا أنقوّه بشيء منه، فزال عني أكثر ما كنتُ فيه من المكاره، وبقي بعضه، وكان ذلك الشعر عندي، فأخذته وحرّقته وغسلته حتى لم يبقَ له أثر، واستغفرتُ الله تعالى من ذلك، فأذهب الله عني جميع ما كنت فيه من المكروه والخوف، وأبدلني الله به عكسه، ولم أزل بعد ذلك في خيرٍ وعافية، ورأيت ذلك حالًا من أحوال الشيخ، ومن كرامته على الله تعالى.

وحدثني أيضًا قال: أخبرني الشيخ ابن عماد الدين المقرئ المطرز قال: قدمت على الشيخ ومعى حينئذٍ نفقة، فسلمت عليه فرد عليّ ورحب بي، وأدنانى ولم يسألني: هل معك نفقة أم لا؟ فلما كان بعد أيام ونفدت نفقتي، أردت أن أخرج من مجلسه بعد أن صليت مع الناس وراءه، فمَنعني وأجلسني دونهم، فلما خلا المجلس دفع إليّ جملة دراهم، وقال: أنت الآن بغير نفقة فارتفق بهذه، فعجبتُ من ذلك، وعلمتُ أن الله كشفه على حالي أولاً لما كان معى نفقة، وآخرًا لما نفدت واحتجت إلى نفقة.

وحدثني مَنْ لا أتهمه أن الشيخ «رضي الله عنه» حين نزل المُغل بالشام لأخذ دمشق وغيرها، رَجَف أهلها وخافوا خوفاً شديداً، وجاء إليه جماعةٌ منهم وسألوه الدعاء للمسلمين، فتوجَّه إلى الله، ثم قال: أبشروا، فإن الله يأتيكم بالنصر في اليوم الفلاني بعد ثلاثة، حتى تروا الرؤوس معبأة بعضها فوق بعض.

قال الذي حدثني: فوالدي نفسي بيده - أو كما حلف - ما مضى إلا ثلاث مثل قوله، حتى رأينا رؤوسهم كما قال الشيخ على ظاهر دمشق معبأة بعضها فوق بعض.

وحدثني الشيخ الصالح الورع عثمان بن أحمد بن عيسى النساخ أن الشيخ «رضي الله عنه» كان يعود المرضى بالبيمارستان بدمشق في كل أسبوع، فجاء على عادته فعادهم فوصل إلى شاب منهم فدعا له فشفي سريعاً، وجاء إلى الشيخ يقصد السلام عليه، فلما رآه هَشَّ له وأدناه، ثم دفع إليه نفقةً، وقال: قد شفاك الله، فعاهد الله أن تعجل الرجوع إلى بلدك، أيجوز أن تترك زوجتك وبناتك أربعاً ضيعة، وتقيم ها هنا؟ فقَبِلَ يده، وقال: يا سيدي، أنا تائب إلى الله على يدك، وقال الفتى: وعجبتُ مما كاشفني به، وكنت قد تركتهم بلا نفقة، ولم يكن قد عَرَفَ بحالي أحدٌ من أهل دمشق.

وحدثني مَنْ أتق به أن الشيخ «رضي الله عنه» أخبر عن بعض القضاة أنه قد مضى متوجهاً إلى مصر المحروسة ليُقَلَّد القضاء، وأنه سمعه يقول: حالما أصل إلى البلد قاضياً أحكم بقتل فلان؛ رجل معين من فضلاء أهل العلم والدين، قد أجمع الناس على علمه وزهده وورعه، ولكن حصل في قلب القاضي منه من الشحنة والعداوة ما صَوَّب له الحكم بقتله، فعظم ذلك على مَنْ سمعه خوفاً من وقوع ما عزم عليه من القتل لمثل هذا الرجل الصالح، وحذراً على القاضي أن يُوقعه الهوى والشيطان في ذلك، فيلقَى الله متلبساً بدم حرام، وفتك بمسلم معصوم الدم بيقين، وكبرها وقوع مثل ذلك لِمَا فيه من عظيم المفسد، فأبلغ الشيخ رضي الله عنه هذا

الخبر بصفته، فقال: إن الله لا يمكنه مما قصد، ولا يصل إلى مصر حيًّا، فبقي بين القاضي وبين مصر قدر يسير وأدركه الموت، فمات قبل وصولها كما أجرى الله تعالى على لسان الشيخ «رضي الله عنه».

قلت: وكرامات الشيخ «رضي الله عنه» كثيرة جدًا لا يليق بهذا المختصر أكثر من ذكر هذا القدر منها، ومن أظهر كراماته أنه ما سُمِعَ بأحد عاداه أو غص منه إلا وابتلي بعده بلایا غالبها في دينه، وهذا ظاهر مشهور لا يحتاج فيه إلى شرح صفته^(١)

ومن كراماته : قال ابن عبد الهادي -تلميذ شيخ الإسلام-^(٢):
وقد اجتمع جماعة معروفون بدمشق، وضربوا مشورة في حق الشيخ -أي: ابن تيمية-

فقال أحدهم: يُنفى، فنُفي القائل

وقال آخر: يُقطع لسانه، فُقطع لسان القائل

وقال آخر: يُعزَّر، فعُزِّر القائل

وقال آخر: يُحبس، فحبس القائل

أخبرني بذلك من حضر هذه المشورة، وهو كاره لها.

من كرامات شيخ الإسلام

قال ابن القيم رحمه الله :

" وَلَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ فِرَاسَةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أُمُورًا عَجِيبَةً ، وَمَا لَمْ أَشَاهِدْ مِنْهَا أَعْظَمَ وَأَعْظَمَ ، وَوَقَائِعُ فِرَاسَتِهِ تَسْتَدْعِي سِفْرًا ضَخْمًا .

(١) ينظر: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٥٦ - ٦٢).

(٢) العقود الدرية: (٣٤٤) .

أَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِدُخُولِ النَّتَارِ الشَّامَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَأَنَّ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ تَكْسِرُ ، وَأَنَّ دِمَشْقَ لَا يَكُونُ بِهَا قَتْلٌ عَامٌّ وَلَا سَبْيٌ عَامٌّ ، وَأَنَّ كَلْبَ الْجَيْشِ وَحِدَّتَهُ فِي الْأَمْوَالِ ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَهْمَ النَّتَارُ بِالْحَرَكَةِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ النَّاسَ وَالْأَمْرَاءَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِمِائَةٍ لَمَّا تَحَرَّكَ النَّتَارُ وَقَصَدُوا الشَّامَ : أَنَّ الدَّائِرَةَ وَالْهَزِيمَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّ الظَّفَرَ وَالنَّصْرَ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَأَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ سَبْعِينَ يَمِينًا ، فَيُقَالُ لَهُ : قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَيَقُولُ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَحْقِيقًا لَا تَعْلِيقًا ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ .

وَكَانَتْ فِرَاسَتُهُ الْجَزِئِيَّةُ فِي خِلَالِ هَاتَيْنِ الْوَاقِعَتَيْنِ مِثْلَ الْمَطَرِ .
وَلَمَّا طُلِبَ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَأُرِيدَ قَتْلُهُ بَعْدَمَا أُنْصِجَتْ لَهُ الْقُدُورُ ، وَقُلِّبَتْ لَهُ الْأُمُورُ ، اجْتَمَعَ أَصْحَابُهُ لَوَدَاعِهِ ، وَقَالُوا : قَدْ تَوَاتَرَتِ الْكُتُبُ بِأَنَّ الْقَوْمَ عَامِلُونَ عَلَى قَتْلِكَ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا يَصِلُونَ إِلَيَّ ذَلِكَ أَبَدًا ، قَالُوا : أَفْتَحْبَسُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَيَطُولُ حَبْسِي ، ثُمَّ أَخْرَجُ وَأَتَكَلَّمُ بِالسُّنَّةِ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ .
وَلَمَّا تَوَلَّى عَدُوَّهُ الْمَلَقْبُ بِالْجَاشَنْكِيرِ الْمَلِكُ أَخْبَرُوهُ بِذَلِكَ ، وَقَالُوا : الْآنَ بَلَغَ مُرَادَهُ مِنْكَ فَسَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا وَأَطَالَ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا سَبَبُ هَذِهِ السَّجْدَةِ ؟ فَقَالَ : هَذَا بِدَايَةِ ذُلِّهِ وَمُفَارَقَةِ عِزِّهِ مِنَ الْآنَ ، وَقَرَبَ زَوَالِ أَمْرِهِ . فَقِيلَ : مَتَى هَذَا ؟ فَقَالَ : لَا تُرْبِطُ خِيُولَ الْجُنْدِ عَلَى الْقُرْطِ حَتَّى تُغْلَبَ دَوْلَتُهُ . فَوَقَعَ الْأَمْرُ مِثْلَ مَا أَخْبَرَ بِهِ ، سَمِعْتُ ذَلِكَ مِنْهُ وَقَالَ مَرَّةً : يَدْخُلُ عَلَيَّ أَصْحَابِي وَغَيْرُهُمْ فَأَرَى فِي وُجُوهِهِمْ وَأَعْيُنِهِمْ أُمُورًا لَا أَذْكُرُهَا لَهُمْ .

فَقُلْتُ لَهُ أَوْ غَيْرِي لَوْ أَخْبَرْتَهُمْ ؟ فَقَالَ : أَتُرِيدُونَ أَنْ أَكُونَ مُعَرِّفًا كَمُعَرِّفِ الْوَلَاةِ ؟ وَقُلْتُ لَهُ يَوْمًا : لَوْ عَامَلْتَنَا بِذَلِكَ لَكَانَ أَدْعَى إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ وَالصَّلَاحِ ، فَقَالَ : لَا تَصْبِرُونَ مَعِيَ عَلَى ذَلِكَ جُمُعَةً ، أَوْ قَالَ : شَهْرًا .
وَأَخْبَرَنِي غَيْرَ مَرَّةٍ بِأُمُورٍ بَاطِنَةٍ تَخْتَصُّ بِي مِمَّا عَزَمْتُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِهِ لِسَانِي .

وَأَخْبَرَنِي بِبَعْضِ حَوَادِثِ كِبَارِ تَجَرِّي فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَلَمْ يُعَيِّنْ أَوْقَاتَهَا ، وَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَهَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ بَقِيَّتَهَا .

وَمَا شَاهَدَهُ كِبَارُ أَصْحَابِهِ مِنْ ذَلِكَ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا شَاهَدْتُهُ " (١).

عصره :

لقد عاش المؤلف « رحمه الله » في عصر كثرت فيه البدع والضلالات ، وسادت كثير من المذاهب الباطلة ، واستفحلت الشبهات وانتشر الجهل والتعصب والتقليد الأعمى ، وغزيت بلاد المسلمين من قبل التتار والصليبيين (الإفرنج). ونجد صورة عصره جلية واضحة من خلال مؤلفاته التي بين أيدينا؛ لأنه اهتم بأجل أمور المسلمين وأخطرها ، وساهم في علاجها بقلمه ولسانه ويده ،

فالم تأمل في مؤلفات الشيخ يجد الصورة التالية لعصره :

- كثرة البدع والشركيات خاصة حول القبور والمشاهد والمزارات المزعومة ، والاعتقادات الباطلة في الأحياء والموتى ، وأنهم ينفعون ويضرون ويدعون من دون الله و انتشار الفلسفات والإلحاد والجدل.
- هيمنة التصوف، والطرق الصوفيّة الضالة على العامة من الناس ، ومن ثم انتشار المذاهب والآراء الباطنية.
- توغل الروافض في أمور المسلمين ، ونشرهم للبدع والشركيات وتشبيطهم للناس عن الجهاد، ومساعدتهم للتتار أعداء المسلمين.
- وأخيراً نلاحظ تقوّي أهل السنة والجماعة بالشيخ وحفزه لعزائمهم مما كان له الأثر الحميد على المسلمين إلى اليوم في التصدي للبدع والمنكرات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم.

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٥٨-٤٥٩) .

وقد وقف الشيخ «رحمه الله» في عصره إزاء هذه الانحرافات موقفاً مشهوداً ، أمراً وناهياً ، وناصحاً ، ومبيناً ، حتى أصلح الله على يديه الكثير من أوضاع المسلمين ونصر به السنة وأهلها ، والحمد لله.

جهاده ودفاعه عن الإسلام :

الكثير من الناس يجهل الجوانب العملية من حياة الشيخ ، فإنهم عرفوه عالمًا ومؤلفًا ومفتيًا ، من خلال مؤلفاته المنتشرة ، مع أن له مواقف مشهودة في مجالات أخرى عديدة ساهم فيها مساهمة قوية في نصرة الإسلام وعزة المسلمين فمن ذلك: جهاده بالسيف وتحريضه المسلمين على القتال ، بالقول والعمل ، فقد كان يجول بسيفه في ساحات الوغى ، مع أعظم الفرسان الشجعان ، والذين شاهدوه في القتال أثناء فتح عكا عجبوا من شجاعته وفتكه بالعدو.

أما جهاده بالقلم واللسان فإنه -رحمه الله- وقف أمام أعداء الإسلام من أصحاب الملل والنحل والفرق والمذاهب الباطلة والبدع كالطود الشامخ ، بالمناظرات -حيناً- وبالورود -أحياناً- حتى فندَّ شبهاتهم ، ورد الكثير من كيدهم بحمد الله ، فقد تصدى للفلاسفة ، والباطنية ، من صوفية ، وإسماعيلية ونصيرية وسواهم ، كما تصدى للروافض والملاحدة ، وفند شبهات أهل البدع التي تقام حول المشاهد والقبور ونحوها كما تصدى للجهمية والمعتزلة والأشاعرة في مجال الأسماء والصفات ، وبالجمله فقد اعتنى ببيان أنواع التوحيد: توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، ورد الشبهات حول هذه الأنواع.

والمطلع على هذا الجانب من حياة الشيخ يكاد يجزم بأنه لم يبق له من وقته فضلة ، فقد حارب وطورد وأوذى وسجن مرات في سبيل الله ، وقد وافته منيته مسجوناً في سجن القلعة بدمشق.

ولا تزال - بحمد الله - ردود الشيخ سلاحاً فعالاً ضد أعداء الحق والمبطلين؛ لأنها إنما تستند على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهدى السلف الصالح

مع قوة الاستنباط ، وقوة الاستدلال والاحتجاج الشرعي والعقلي ، وسعة العلم ، التي وهبها الله له ، وأكثر المذاهب الهدامة التي راجت اليوم بين المسلمين هي امتداد لتلك الفرق والمذاهب التي تصدّى لها الشيخ وأمثاله من سلفنا الصالح؛ لذلك ينبغي للدعاة المصلحين أن لا يغفلوا هذه الناحية؛ ليستفيدوا مما سبقهم به أولئك.

ولست مبالغاً حينما أقول: إنّه لا تزال كتب الشيخ وردوده هي أقوى سلاح للتصدي لهذه الفرق الضالة والمذاهب الهدامة التي راجت اليوم، والتي هي امتداد للماضي ، لكنها تزيت بأزياء العصر ، وغيّرت أسماءها فقط ، مثل البعثيّة ، والاشتراكية ، والقوميّة ، والقاديانيّة والبهائيّة ، وسواها من الفرق والمذاهب.

المجالات العلميّة التي أسهم فيها :

ولم يترك الشيخ مجالاً من مجالات العلم والمعرفة التي تنفع الأمة ، وتخدم الإسلام إلا كتب فيه وأسهم بجدارة وإتقان ، وتلك خصلة قلما توجد إلا عند العباقرة النواذر في التاريخ.

فلقد شهد له أقرانه وأساتذته وتلاميذه وخصومه بسعة الاطلاع ، وغزارة العلم ، فإذا تكلم في علم من العلوم أو فن من الفنون ظنّ السامع أنّه لا يتقن غيره ، وذلك لإحكامه له وتبحره فيه ، وأنّ المطلع على مؤلفاته وإنتاجه ، والعارف بما كان يعمله في حياته من الجهاد باليد واللسان ، والذبّ عن الدين ، والعبادة والذكر ، ليعجب كل العجب من بركة وقته ، وقوة تحمله وجلده ، فسبحان من منحه تلك المواهب.

إنتاجه العلمي :

وفي مجال التأليف والإنتاج العلمي ، فقد ترك الشيخ للأمة تراثاً ضخماً ثميناً ، لا يزال العلماء والباحثون ينهلون منه معيناً صافياً ، توفرت لدى الأمة منه الآن المجلدات الكثيرة ، من المؤلفات والرسائل والفتاوى والمسائل وغيرها ، هذا من المطبوع ، وما بقي مجهولاً ومكنوزاً في عالم المخطوطات فكثير.

وفاته :

إنَّ من علامات الخير للرجل الصالح ، وقبوله لدى المسلمين، إحساسهم بفقده حين يموت؛ لذلك كان السلف يعدون كثرة المصلين على جنازة الرجل من علامات الخير والقبول له؛ لذلك قال الإمام أحمد: "قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز" أي: أنَّ أئمة السنة أكثر مشيعين يوم تموتون، ولقد شهد الواقع بذلك، فما سمع الناس بمثل جنازتي الإمامين: أحمد بن حنبل، وأحمد ابن تيمية حين ماتا من كثرة من شيعهما وخرج مع جنازة كل منهما، وصلَّى عليهما، فالمسلمون شهداء الله في أرضه. هذا وقد توفي الشيخ «رحمه الله» وهو مسجون بسجن القلعة بدمشق ليلة الاثنين ٢٠ من شهر ذي القعدة سنة (٧٢٨) هـ ، فهب كل أهل دمشق ومن حولها للصلاة عليه وتشيع جنازته وقد أجمعت المصادر التي ذكرت وفاته أنه حضر جنازته جمهور كبير جدًا يفوق الوصف رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

مصادر ترجمة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

١- انظر مناقب الإمام أحمد « لابن الجوزي » ص (٥٠٥). تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي.

٢ .الأعلام العليّة في مناقب ابن تيمية «للحافظ عمر البزار» تحقيق زهير الشاويش.

٣- البداية والنهاية لابن كثير جزء (١٤) ص (١٣٥-١٣٩).

٤- شذرات الذهب لابن العماد جزء (٦) ص (٨٠-٨٦).

٥- فوات الوفيات «محمد بن شاکر الکتبی» ج ١ ص (٧٤-٨٠).

٦- كتاب الذيل على طبقات الحنابلة « لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد البغدادي» ص (٣٨٧-٤٠٨).

٧- الأعلام « لخیر الدین الزرکلی» ج ١ ص (١٤٤).

٨- مناقب الإمام أحمد بن حنبل « لابن الجوزي » تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي.

بيان إجمالي لسجن شيخ الإسلام ابن تيمية

سُجن شيخ الإسلام رحمه الله سبع مرات لمدد متفاوتة بلغت جملتها خمس سنوات، وفي ميزان حسناته إن شاء تزيّد عن الخمس مئات.

أسبابها كلها واهيات، فهي نتيجة حسد، ووشاية، وسعايات أما نتائجها وثمراتها فجذعجيات، إذ العبرة بالخواتيم، حيث خلفت العديد من المآثر والمؤلفات التي أضحت حياة لصاحبها بعد الموت.

السجنة الأولى:

في دمشق عام ٦٩٣ هـ، كانت مدتها قليلة، وفائدتها كبيرة، وثمرتها جليلة؛ سببها واقعة عسّاف النصراني^(١)، الذي شهد عليه جماعة أنّه سب النبي صلى الله عليه وسلم، فعندما بلغ الخبرُ شيخَ الإسلام التقي بالشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث في وقته، فرفعا أمره إلى نائب السلطان بدمشق، عز الدين أيبك الحموي، فأحضر عسّاف ومعه مجيره أمير آل علي، فضربهما الناس بالحجارة، فضربهما السلطان أمام عسّاف، ثم دعاهما وأرضاهما. وادّعى النصراني الإسلام، فقتل في طريقه إلى الحجاز، قتله ابن أخيه، ولعل ما أصابه كان انتقاماً من الله للشيخين الكريمين.

(١) حادثة عسّاف النصراني سنة ٦٩٣ هـ/١٢٩٤م

بلغ ابن تيمية في سنة ٦٩٣ هـ أنّ أحد النصارى ويدعى "عسّاف النصراني" قد قام بسب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فأوى عسّاف إلى أحد العلويين لحمايته، إلا أنّ ابن تيمية ذهب مع شيخ دار الحديث إلى نائب السلطنة في دمشق وخاطباه في الأمر، فقام باستدعاء عسّاف النصراني فخرجا من عنده مع جماعة من الناس. فعندما رأى الناس عسّافاً ومعه رجل بدوي، قاموا بسبه وشتمه، فقال الرجل البدوي: هو خير منكم -يعني عسّاف- فرجمهما الناس بالحجارة، وأصاب عسّافاً، فأرسل نائب دمشق بطلب ابن تيمية وشيخ دار الحديث، فضربهما بين يديه لأنّهما اتّهما بتحريض العامة، ثمّ أسلم عسّاف بعد أن أثبت براءته واعتذر نائب السلطنة لابن تيمية وشيخ دار الحديث. وقام ابن تيمية بعد ذلك بكتابة "الصارم المسلول على شاتم الرسول". أنظر: البداية والنهاية (٣٥٥/١٣) لابن كثير الدمشقي رحمه الله تعالى.

وكان من نتيجة هذه الحادثة أن ألف شيخ الإسلام سفره العظيم: "الصارم المسلول على شاتم الرسول"، الذي أصبح مرجعاً يرجع إليه الناس كلما نيل أحد من أنبياء الله ورسله.

السجنة الثانية:

كانت في القاهرة، وكانت مدتها سنة ونصف من يوم الجمعة ٩/٢٦ رمضان ٧٠٥هـ إلى يوم الجمعة ٣/٢٣ ربيع أول ٧٠٧هـ؛ كانت بدايتها في سجن "برج"، ثم نقل إلى الجُب بقلعة الجبل.

وكان معه في هذه المرة أخواه عبد الله وعبد الرحمن، وتلميذه إبراهيم الغياني، حيث كانوا ملازمين له في سفره إلى القاهرة.

وسببها كما ذكره الحافظ ابن كثير في تاريخه "البداية والنهاية" في حوادث ٧٠٥هـ، كان مسألة العرش، ومسألة الكلام، ومسألة النزول.

وفيها من المواقف البطوليّة، والصدق في ذات الله ما يملأ النفس بالإيمان والجد في العمل عندما أخرجوا من السجن دعا أخوه عبد الله الملقب بالشرف على من تسبب في حبسه ظلماً وعدواناً، فمنعه شيخ الإسلام، وقال له: بل قل: اللهم هب لهم نوراً يهتدون به إلى الحق.

السجنة الثالثة:

كانت بمصر أيضاً، ولمدة قليلة، أسبوعين من ٣/١٠/٧٠٧هـ إلى ١٨/١٠/٧٠٧هـ. وسببها أنه ألف كتاباً في الاستغاثة، المعروف بالرد على البكري، لهذا استعدى عليه الصوفيّة السلطة بالقاهرة، فكوّن له مجلس، فمنهم من برأه ومنهم من أدانته.

السجنة الرابعة:

بمصر كذلك، في قاعة "الترسيم"، لمدة شهرين أو تزيد، من آخر شهر شوال ٧٠٧هـ، إلى أول سنة ٧٠٨هـ. وكانت تلك السجنة بسبب مؤامرة تولاها الصوفي الباطني الحلولي نصر المنبجي، مستغلاً صلته بالحاكم الجاشنكير.

السجنة الخامسة:

كانت بالإسكندرية من يوم ١/٣/٧٠٩ هـ إلى ٨/١٠/٧٠٩ هـ، لمدة سبعة شهور، وهي بمكيدة من نصر المنبجي والباشنكير، عليهما من الله ما يستحقانه.

لقد عزموا أن ينفوه إلى قبرص، وهُدِّد بالقتل، ف قيل له في ذلك، فقال مقالته المشهورة، وكلمته المشكورة: "إن قتلت كانت لي شهادة، وإن نفوني كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قبرص دعوتُ أهلها إلى الله فأجابوني، وإن حبسوني كان لي معبداً، وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت، تقلبت على صوف"، فيئسوا منه وانصرفوا.

ولكن الله يدافع عن الذين آمنوا، فما هي إلا شهور حتى رجع الملك الناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩ هـ، خالفاً الخائن الجاشنكير، فأفرج عن الشيخ، واستدعاه من الإسكندرية إلى القاهرة، وأكرمه، وأجله، واستفتى الشيخ في قتل المشايخ الذين كانوا سعوا به إلى الجاشنكير وأرادوا قتله بعد سجنه، ولكن الشيخ «رحمه الله» علم مراد السلطان وأنه يريد أن يتخلص منهم انتقاماً لنفسه، فشرع الشيخ في مدحهم والثناء عليهم، وقال: إِنَّ هَؤُلاءِ أَفْضَلُ ما في مَمْلَكَتِكَ، فَإِنْ قَتَلْتَهُمْ فَلَا تَجِدُ بَدِيلاً عَنْهُمْ؛ وقال له: أما أنا فهم في حل من جهتي.

ولهذا قال ابن مخلوف «قاضي المالكية» في زمانه، وكان من المحرضين عليه، بعد ذلك: ما رأينا أنقى من ابن تيمية، لم نبق ممكناً في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا.

وبعدها نزل الشيخ القاهرة، وسكن بالقرب من مشهد الحسين، وتردد عليه الخلق على اختلاف طبقاتهم يسألونه، ويستفتونه، ويحرضونه على خصومه، وما فتئ يقول: أنا أحللت كل من آذاني، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه.

ثم عاد إلى دمشق بصحبة السلطان لملاقاة التتار في ٨/١٠/٧١٩ هـ بعد غيبة منها دامت سبع سنين، سجن فيها أربع مرات ولمدة سنتين ونصف.

السجنة السادسة:

كانت بدمشق لمدة ستة أشهر تقريباً من يوم الخميس ١٢/٧/٧٢٠هـ إلى يوم الاثنين ١٠/١/٧٢١هـ، بسبب الحلف بالطلاق.

لقد أثمرت هذه السجنة عن العديد من الكتب والرسائل المفيدة، والردود الحافلة على الخصوم والمعادين، منها "الرد الكبير على من اعترض عليه في مسألة الحلف بالطلاق".

السجنة السابعة

بدمشق لمدة عامين وثلاثة أشهر ونصف تقريباً، من يوم الاثنين ٦/٨/٧٢٦هـ إلى ليلة الاثنين ٢٠/١١/٧٢٨هـ، حيث أخرجت جنازته من سجن القلعة إلى مثواه الأخير؛ وكانت بسبب مسألة الزيارة، وأنتجت "الرد على الإخنائي".

وقد فتح عليه في هذه المرة من الفتوح الربانية، والعلوم النافعة، والعبادة الخالصة، هذا بجانب العديد من الرسائل والفتاوي، على الرغم من حرمانه من كتبه وأدوات الكتابة، فكان يكتب من حفظه ولم يزد شيخ الإسلام في مسألة الزيارة هذه إلا أن أورد قولي العلماء، قول مالك الذي ينهى أن تشد الرحال إلا للمساجد الثلاثة، للحديث الصحيح: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد.."، وهو الراجح، والقول الثاني لبعض الشافعية والحنابلة بجواز ذلك، فما يدري الإنسان لم قامت الدنيا على ابن تيمية ولم تقم على مالك؟ ليس هناك من سبب سوى الهوى، والتعصب، والتقليد الأعمى.

اللهم اغفر لشيخ الإسلام في الأولين والآخرين، وأكرم نزله، وأعلي شأنه، وأكرم مكانه، وانفع بكتبه ومؤلفاته وآثاره وتلاميذه، الأحياء منهم والميتين، وإجزه عن الإسلام وأهله، بل واجز الإسلام عنه خير الجزاء، يا واسع المغفرة يا مجيب الدعاء.

تراجم ودراسات حول شيخ الإسلام ابن تيمية مرتبة

- ١ . ابن تيمية إمام السيف والقلم
سعد صادق محمد
- ٢ . ابن تيمية بطل الإصلاح الديني
محمود مهدي الاستانبولي
- ٣ . ابن تيمية حياته وعصره
محمد أبو زهرة
- ٤ . ابن تيمية السلفي
د. محمد خليل هراس
- ٥ . ابن تيمية الفقيه المعذب
عبد الرحمن الشرقاوي
- ٦ . ابن تيمية المفتري عليه
محمد سليم الهلالي
- ٧ . ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل
د. محمد السيد الجليند
- ٨ . الأعلام العلوية في مناقب ابن تيمية
سراج الدين أبو حفص عمر البزار
- ٩ . البداية والنهاية (١٤/١٦٣)
الحافظ ابن كثير القرشي
- ١٠ . البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/٦٣) محمد بن علي الشوكاني
- ١١ . تاريخ المذاهب الإسلامية ٢/٤٠٥
محمد أبو زهرة
- ١٢ . تذكرة الحفاظ (٤/١٤٩٦)
شمس الدين الذهبي
- ١٣ . ترجمة شيخ الإسلام
محمد كرد علي
- ١٤ . جلاء العينين في محاكمة الأحمدين
نعمان خير الدين ابن الألويسي
- ١٥ . جنتي في صدري (مسرحة شعرية)
محمد محمد السنباطي
- ١٦ . الحافظ ابن تيمية
أبو الحسن الندوي
- ١٧ . الحمية الإسلامية في الانتصار لمذهب ابن تيمية جمال الدين السمرري
- ١٨ . حياة شيخ الإسلام
محمد بهجة البيطار
- ١٩ . الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة (١/١٥٤) الحافظ ابن حجر العسقلاني
- ٢٠ . الذيل على طبقات الحنابلة (٢/٣٨٧)
ابن رجب الحنبلي
- ٢١ . الرد الوافر
ابن ناصر الدين الدمشقي
- ٢٢ . شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٦/٨٠)
ابن العماد الحنبلي

- ٢٣ . طبقات المفسرين (٤٥/١) شمس الدين محمد بن علي الداودي
- ٢٤ . العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية محمد بن أحمد عبد الهادي
- ٢٥ . غاية الأمان في الرد على النبهاني محمود شكري الألوسي
- ٢٦ . فوات الوفيات (٦٢/١) محمد بن شاكر الكُتبي
- ٢٧ . قواعد المنهج الإسلامي والنسق الإسلامي عند شيخ الإسلام ابن تيمية
د. مصطفى حلمي
- ٢٨ . الكواكب الدرية في مناقب الإمام المجتهد ابن تيمية
- مرعي بن يوسف الكرمي
- ٢٩ . لمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية عبد الرحمن عبد الخالق
- ٣٠ . مرآة الجنان، وعبرة اليقظان في ما يعتبر من حوادث الزمان (٢٧٧/٤)
- أبو محمد عبد بن أسعد اليميني
- ٣١ . معجم أصحاب شيخ الإسلام ابن تيمية وليد بن حسني بن بدوي الأموي
- ٣٢ . مقارنة بين الغزالي وابن تيمية د. محمد رشاد سالم
- ٣٣ . مقدمة " أحاديث القصاص لابن تيمية " د. محمد الصباغ
- ٣٤ . منطق ابن تيمية محمد حسني الزين
- ٣٥ . من مشاهير المجددين في الإسلام صالح بن فوزان
- ٣٦ . التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار عماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي
- ٣٧ . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٢٧١/٩)
- أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردي الأتابكي

مقدمة العلامة المحقق محب الدين الخطيب رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيد الهداة وأفضل المرسلين سيدنا محمد و آله وصحبه ومن أحيا سنته وأقام شريعته إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.
وبعد فإن من مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق كتاباً اسمه (الكواكب الدراري في ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاري) لابن عروة الحنبلي الدمشقي، وهو لم يقتصر فيه على أحاديث المسند، بل تعرّض لكل ما يناسبها من بحوث العلماء ورسائلهم ومؤلفاتهم فأوردها في كتابه كلما عرضت لذلك مناسبة.

وأكثر ما يورده من هذه البحوث والرسائل والمؤلفات ما كان منها بأقلام علماء الحنابلة، ولا سيما شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه وطبقتهم، فانتسج بذلك كتاب (الكواكب الدراري) حتى بلغ مائة وخمسين مجلداً ففقد للأسف الكثير منها ، وحُفظ في دار الكتب الظاهرية بضعة وأربعون مجلداً من هذا المؤلف الحافل، بعضها من أوائل الكتاب وبعضها من أواسطه أو أواخره، وقد تجاوز بعضها المجلد العاشر بعد المائة، وإن كثيراً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ورسائله التي طبعت إنما استخرجت من هذا البحر الذي لا ينضب معينه.

وفي جمادى الأولى من سنة ١٣٢١ هجرية ، وكنت يافعاً أتطلع إلى علم السلف بلهفة الناشئ المتزود، عثرتُ في المجلد الحادي والأربعين من

«الكواكب الدراري» على مذكرات لشاهد عيان ألّمت بنواحي من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لا يغني ما كتبه الكاتبون وألفه المؤرخون في ترجمته ، وبعض هذه المذكرات عما قام به هذا الوارث لعلم النبوة من واجب العلماء في الحياة العملية والإرشاد الفعلي، وبعضها الآخر عما وقع للشيخ وهو مسجون في قاعة الترسيم بالقاهرة، وكتب المذكرات خادمه «إبراهيم بن أحمد الغياني» الذي كان معه طول

مدة حبسه في قاعة الترسيم، ثمَّ كان رسوله إلى دمشق عندما نقلوه إلى البرج الأخضر في الإسكندريَّة ومنعوا في بادئ الأمر أن يكون معه أحد .

ومذكرات خادم الشيخ مكتوبة بلغة بين العاميَّة والفصحى وكاتبها لطول صحبته للشيخ كتب من علمه وصلاحه وصحة إيمانه، إلا أنَّه لم يكن له ملكة العربية الفصحى ما يرفعه عن مستوى أمثاله، وقد حرصتُ على إبقاء ألفاظه كما هي لما في ذلك من فائدة الوقوف على لغة الجمهور في ذلك لحين، ولم أصحح غير الإعراب في مواضع قليلة في الرسالة لأنَّ إبقاءه على غير الصواب لا فائدة منه كالفائدة التاريخية التي توقعتها من المحافظة على الألفاظ العاميَّة ، وبهذا أعطيت الأمانة حقها بالمحافظة على ألفاظ خادم شيخ الإسلام ابن تيمية، كما أدت العربية حقها فيما يتعلق بالإعراب لأنَّ مخالفته لا فائدة منها .

وقد علَّقت على مواضع من هذه المذكرات بما يزيدها وضوحاً ولا سيما في تعيين أوقات الحوادث وتسمية أيامها، مقتبساً ذلك مما كتبه أبو عبد الله محمد بن عبد الهادي المقدسي (٧٠٤-٧٤٤هـ) في العقود الدريَّة وما نقله عن العالم المؤرخ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي الاشبيلي (٦٥٥-٧٣٩هـ) ، والحافظ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ) وغيرهما من أعلام ذلك العصر .

وكان يجب نشر هذه الرسالة قبل عشرات السنين، ولكن نُسختها التي كتبتها في طفولتي لم تقع في يدي الآن ، فحمدت الله على وجودها، وبادرت بنشرها وإحيائها لما أرجوه من فوائدها العلميَّة والتاريخيَّة ، والله الموفق .

مقدمة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان : ٣] ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْزِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠]

﴿ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢]

وصلى الله على محمد عبده ورسوله، خير الخلق وأكرمهم على الله المصطفى المأمون، صلاة دائمة ما دامت الأيام والدهور والسنون .

أما بعد ،،،

فهذا فصل فيما قام به الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه وتفرّد به دون غيره من العلماء (رضي الله عنهم) الذين كانوا قبله وفي زمانه، وذلك بتفسير الأحجار التي كان الناس يزورونها ويتبركون بها ويقبلونها، وينذرون لها النذور، ويلطخونها بالخلوق، ويطلبون عندها قضاء حاجاتهم، ويعتقدون أنّ فيها - أو لها - سرّاً وأنّ من تعرض لها بسوء - يقال (أو فعال) أصابته في نفسه آفة من الآفات .

فشرع الشيخ يعيب تلك الأحجار، وينهي الناس عن إتيانها، أو أن يفعل عندها شيء مما ذكر، أو أن يحسن بها الظن .

فقال له بعض الناس: إنّه قد جاء حديث أنّ أم سلمة سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بالتين والزيتون، فأخذت تينة وزيتونة وربطت عليهما وعلقتهما حرزاً، وبقيت كلما جاء إليها أحد مرض تحطه عليه فيبرأ من ذلك المرض، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك، فقالت: سمعتك تقرأ بالتين والزيتون، فقلت: ما

قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك إلا وفيه سر أو منفعة، فعملت تينة وزيتونة لي حرزاً، وأحسن ظني به

ونفعت بذلك الناس فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم «لو أحسن أحدكم ظنّه بجزر لنفعه الله به»^(١)

فقال الشيخ : هذا الحديث كله - من أوله إلى آخره - كذب مختلق، وإفك مفترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أم سلمة رضي الله عنها ، والذي صح وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال : " أنا عند ظن عبدي بي^(٢)، وأنا معه إذا دعاني... " الحديث ، و " أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً " ، وقال : " لا يموتن أحدكم إلا ويحسن ظنّه بالله " ^(٣) الذي تقرّد بخلقه، وأوجده من العدم ولم يكن شيئاً ، وببده ضره ونفعه، كما قال إمامنا وقدوتنا إبراهيم «خليل الرحمن»:

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾ [الشعراء : ٧٨-٨٢]. فهذا الرب العظيم الكبير المتعال، الذي بيده ملكوت كل شيء، يحسن العبد به ظنّه ، ما يحسن ظنّه بالأحجار، فإنّ الكفّار أحسنوا ظنّهم بالأحجار فأدخلتهم النار، وقد قال الله تعالى في الأحجار، وفيمن أحسنوا بها الظن حتى عبدوها من دونه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا

(١) لا أصل له ، أورده الحافظ العجلوني في [كشف الخفاء : ١٥٢/٢] ونقل عن ابن تيمية أنّه كذب، وعن ابن حجر أنّه لا أصل له، وعن صاحب [المقاصد] أنّه لا يصح، ونقل عن ابن القيم قوله: (هو من كلام عباد الأصنام الذين يحسنون ظنّهم بالأحجار) وانظر [سلسلة الأحاديث الضعيفة حديث رقم ٤٥٠].

(٢) رواه أبو هريرة ، و أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) باختلاف يسير.

(٣) رواه جابر بن عبد الله ، وأخرجه مسلم برقم ٢٨٧٧ ، قال : " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " .

النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» [التحریم: ٦]، وقال : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء : ٩٨] .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يستحجر من البول بثلاثة أحجار^(١)، ما قال أحسنوا ظنكم بها، بل قال : استحجروا بها من البول وقد كسر النبي صلى الله عليه وسلم الأحجار التي أحسن بها الظن حتى عُبِدَتْ حول البيت وحرَّقها بالنار .

فبلغ الشيخ أنَّ جميع ما ذُكر من البدع يتعمدها الناس عند العمود المخلَّق الذي داخل (الباب الصغير) الذي عند (درب النافذانيين) ، فشدَّ عليه وقام واستخار في الخروج إلى كسره فحدثني أخوه الشيخ الإمام القدوة شرف الدين عبد الله بن تيمية^(٢) قال : فخرجنا لكسره، فسمع الناس أنَّ الشيخ يخرج لكسر العمود المخلَّق، فاجتمع معنا خلق كثير ، قال : فلما خرجنا نحوه ، وشاع في البلد أن ابن تيمية طالع ليكسر العمود المخلَّق، صاح الشيطان في البلد، وضجَّت الناس بأقوال مختلفة، هذا يقول : " ما بقيت عينُ الفيجة تطلع " ، وهذا يقول : " ما ينزل المطر، ولا يثمر شجر، وهذا يقول : " ما بقي ابن تيمية يُفلح بعد تعرُّض لهذا، وكل من يقول شيئاً غير هذا .. "

قال الشيخ شرف الدين : فما وصلنا إلى عنده إلا وقد رجع عنا غالب الناس، خشية أن ينالهم منه في أنفسهم آفة من الآفات، أو ينقطع بسبب كسره بعض الخيرات. قال : فتقدمنا إليه، وصحنا على الحجارين : " دونكم هذا الصنم ، فما جسر أحد منهم يتقدم إليه . قال : فأخذت أنا والشيخ المعاول منهم ، وضربنا فيه، وقلنا : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء : ٨١]

(١) أخرج البخاري ١٥٦، والترمذي ١٧. عن عبد الله بن مسعود يقول: أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- الغائط فأمرني أن آتية بثلاثة أحجار، فوجدت حجرين، والتمست الثالث فلم أجده، فأخذت روثه فأتيت به، فأخذ الحجرين وألقى الروث، وقال: (هذا ركس).

(٢) الشيخ شرف الدين عبد الله بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحزاني (ت ٧٢٧ هجرية) شقيق شيخ الإسلام ابن تيمية ، وترجمته في شذرات الذهب (٧٦/٦-٧٧) .

وقلنا : إن أصاب أحداً منه شيء نكون نحن فداه، وتابعنا الناس فيه بالضرب حتى كسرناه، فوجدنا خلفه صنمين حجارة مجسدة مصورة طول كل صنم نحو شبر ونصف .

وقال الشيخ شرف الدين : " قال الشيخ النووي : " اللهم أقم لدينك رجلاً يكسر العمود المخلوق، ويخرب القبر الذي في جيرون" فهذا من كرامات الشيخ محي الدين (أي النووي) ، فكسرناه والله الحمد ، وما أصاب الناس من ذلك إلا الخير .

فصل

قد بلغ الشيخ أن في المسجد الذي خلف (قبة اللحم) في (العلافين) ويعرف باسم (مسجد الكف) بلاطة سوداء، وقد شاع بين الناس أن إنساناً من قديم الزمان رأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وحدثه بأمور فقال : يا رسول الله ، إن حدثت الناس بالذي حدثتني لا يصدقوني، فقال له : هذا كفي اليمين في هذه البلاطة دليلاً على صدقك، وحط كفه فيها ، فغاص فبقي فيها موضع كف خمس أصابع ، وانعكف الناس عليه - كما ذكر - بالنذر له، والتبرك به ، والاستسقاء .

فبلغ ذلك الشيخ، فطلع إليها ومعه جماعته وأخوه الشيخ شرف الدين فسمعتهم غير مرة يحدث يقول : لما نظرتُ إليها قلت : هذا الكف منحوت، مصنوع ، ومكذوب، فإن النحات جاء يعمل كف يمين فعمله كف شمال، فبقي معكوساً يجيء الخنصر موضع الإبهام ، والإبهام موضع الخنصر، فكسرها ، وما بقي لها ذكر ولا أثر ، والله الحمد .

فصل

وكانت صخرة كبيرة عظيمة في وسط محراب (مسجد النارج) فيتوجه المصلي إليه ضرورة، وعليها ستر أسود مرخي ودرابزين^(١) حولها، وقد استفاض بين الناس أنه حُطَّ عليها رأس الحسين عليه السلام فانشقت له، وأنها متى انشقت كلها قامت القيامة ، ولها في كل سنة - يوم عاشوراء - عيدٌ يجتمع فيه الناس، ويبقون في ذلك اليوم وفي غيره من الأيام يتبركون بها ويقبلونها ، وينذرون لها النذور، ويلطخونها بالخلق، ويدعون عندها .

فبلغ ذلك الشيخ، فطلب الحجارين من القلعة، وخرج إليها ومعه شرف الدين في جماعة كبيرة ، فأول شئ عمله قلع الدرابزين من حولها، ومنتش الستر عنها ورماء، وصاح على الحجارين : " دِهْ عليه !"^(٢) فتأخروا عنها، فتقدم هو وأخوه شرف الدين وضربها بنعله وقال : " إن أصاب أحداً منها شئ أصابنا نحن قبله " ، فتقدم إليها عند الحجارون، وحفروا عليها، فإذا هي رأس عمود كبير قد حفر له ، ونزل في ذلك المكان ، فكسروه ، وحملوه على أربع عشرة بهيمة، وأحرقوه كلساً^(٣). قال الشيخ : بعض الرافضة عمل هذا في المكان ، ولوّح بين الناس أن رأس الحسين حطّوه على هذا الحجر، حتى يُضِلَّ به جُهَّال الناس، قال : والرافضة من عادتهم

(١) دَرَبَزِين أو الدَرَبَزِين أو الدَرَبَزُون ج دَرَبَزُونَات (من التركية Trabzan طرابزان)، هي تقاريج الدرابزين مفرد نُفْرَاج؛ أي أعمدة محدودة ومصطفة يعلوها متكأ وهو حاجز " دريئة" عبارة عن سور منخفض لمنع سقوط الأشخاص أو الأشياء من سقف أو من بلكون أو من أي مكان مشابه و له ارتفاع مختلف.

(٢) كذا في الأصل، والصواب : " دُقْ عليه" حتى يستقيم المعنى ، لأنه أمر الحجارين بتكسيه ، ولعله تصحيف من ناسخ المخطوطة .

(٣) الكلس: الجير plaster أي المادة المتبقية بعد تسخين الحجر الجيري تسخيناً شديداً في قمائن خاصة، فيتصاعد منه ثاني أكسيد الكربون CO₂، ويبقى أكسيد الكالسيوم (الجير الحي) الذي يطفأ بالماء فتنبعث منه حرارة شديدة، ويتحول إلي الجير المطفأ الذي يستخدم في أعمال البناء، كما تطفئ به الحوائط ، ومعنى أحرقوه كلساً ، أي حرقاً شديداً كما يُحرق الكلس (الجير).

أنَّهم يخربون المساجد ويعمرون المشاهد، ويعظمونها بخلاف المساجد ، وقد قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَعْزُمُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة : ١٨] .

ولم يقل « مشاهد الله » ، وقال : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ [الجن : ١٨] .
 ما قال « وَأَنَّ المشاهد لله » وقال : النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا وَلَوْ كَمَفْخَصِ قِطَاةٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ »^(١)
 ما قال : « من بنى لله مشهداً بنى الله له بيتاً في الجنة » .
 وتكلم وهو جالس في هذا المكان ، وقال من هذا الجنس شيئاً كثيراً ، وقال : زيارة القبور زيارة شرعية مأمور بها ، والزيارة البدعية منهي عنها ، فالزيارة الشرعية التي أمر بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه زار قبر أمه فقال « استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي ، واستأذنته أن أستغفر لها فلم يأذن لي »^(٢)
 «فإني كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ، فزورها فإنها تذكركم الآخرة»^(٣) فالكافر يُزار قبره ليتذكر به الآخرة، ولا يُدعى له ولا يستغفر له، بخلاف المؤمن فإنه يُزار قبره ليتذكر به الآخرة، ويدعى له ويستغفر، ويترحم عليه، ويسأل الله له من كل خير، فإن زيارة قبره من جنس الصلاة عليه .
 وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمُ أصحابه إذا رأوا القبور أن يقول قائلهم :

(١) إسناده صحيح ، رواه أبو ذر الغفاري ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه برقم ١٦١٠ .
 (٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٩٧٦ ، زَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْرَ أُمِّهِ بِالْأَبْوَاءِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَذَلِكَ كَانَ عَامَ الْفَتْحِ، وَسَبَّبَ زِيَارَتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْرَهَا أَنَّهُ قَصَدَ قُوَّةَ الْمَوْعِظَةِ وَالذِّكْرِ بِمُشَاهَدَةِ قَبْرِهَا، وَبُيِّنَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: فَرُورُوا الْقُبُورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْرَ أُمِّهِ فَتَبَكَ وَأَبَكَى مَنْ حَوْلَهُ، أَيْ: بَكَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَكَى مَنْ حَوْلَهُ لُبْكَائِهِ.
 (٣) رواه مسلم ، فعن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَرُورُوهَا) رواه مسلم ، وفي لفظ عند الترمذي (١٠٥٤) : (فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ) .

« السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، ويرحم الله منا ومنكم المستقدمين والمستأخرين ، ونسأل الله لنا ولكم العافية، اللهم لا تحرمنّا أجرهم ، ولا تفتنّا بعدهم ، واغفر لنا ولهم »^(١)

فهذا كلمة حق للمؤمن ، وقد قال : « أكثرُوا من الصلاة عليّ يوم الجمعة وليلة الجمعة، فإنّ صلاتكم عليّ معروضة عليّ ، قالوا يا رسول الله كيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أُرمت؟ فقال : تقولون إني بليت؟ قالوا : نعم ، قال : إنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء »^(٢)

وقد روى ابن عبد البر حديثاً وصححه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من رجل مؤمن يمرّ بقبر رجل مؤمن كان يعرفه في الدنيا فسلم عليه إلا ردّ الله عليه روحه حتّى يرد السلام »^(٣)

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: (أَلَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْنَا: بَلَى.. الحديث، وفيه: قالت: قُلْتُ: كيف أقولُ لهم يا رسولَ الله؟ قال: قولي: السَّلامُ على أَهلِ الدِّيَارِ من المؤمنينَ والمُسلمينَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ المُستَقدمينَ مِنَّا والمُستَأخِرِينَ، وإِنَّا إن شاءَ اللَّهُ بكم للاحِقونَ) رواه مسلم برقم ٩٧٤ وعن بُريدةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: (كان رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى المَقَابِرِ، فَكان قائلُهُم يقول: السَّلامُ عليكم أَهلَ الدِّيَارِ من المؤمنينَ والمُسلمينَ، وإِنَّا إن شاءَ اللَّهُ للاحِقونَ، أسأَلُ اللَّهُ لنا ولكم العافيةَ) أخرجه مسلم ٩٧٤ .

(٢) رواه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (٩١/٣)، وابن ماجه (١٦٣٦)، وأحمد (٨/٤) (١٦٢٠٧)، وابن حبان (١٩٠/٣)، والحاكم (٤١٣/١). والحديث سكت عنه أبو داود. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال النووي في (المجموع) (٥٤٨/٤): إسناده صحيح. وحسنه ابن حجر في (هداية الرواة) (٩٤/٢) - كما أشار لذلك في المقدمة - وقال الألباني في (صحيح سنن ابن ماجه): صحيح.

(٣) الحديث خرّجه أبو عمر بن عبد البر في (الاستدكار) [١/ ١٨٥]: من طريق بشر بن بكير، عن الأوزاعي، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن ابن عباس، مرفوعاً. ولفظه: "ما من أحد مرّ بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام". لكن لم يتكلم عليه، ولم أقف عليه في مطبوعة "التمهيد"، ولعل شيخ الإسلام كان بين يديه نسخة فيها تصحيح ابن عبد البر ولم نقف عليه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "مجموع الفتاوى" (٢٤ / ٣٣١) قال ابن المبارك: ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان كلامه رحمه الله عن حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : «ما من أحد مرّ بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا، فسلم عليه، إلا عرفه ورد عليه السلام».

وأما الزيارة البدعية فهي أن تزار القبور للتبرك بها، أو الدعاء عندها، أو الاستعانة بأهلها، أو النذر لها - مثل زيت أو كسوة أو شمع أو دراهم - أو يشعلون عندها السُرج، أو يصلون عندها، فإنَّ النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن جميع ذلك فقال :

« لعن الله زوّارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُرج »^(١)

وقال: « إنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا تتخذوا القبور مساجد »^(٢)

وقال : « إنَّ من شرار الناس من تدرّكهم الساعة وهم أحياء، والذين اتخذوا قبور

أنبيائهم مساجد »^(٣)

يحذر ما فعلوا ، قالت عائشة رضي الله عنها : « ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً »^(٤) ، فهذه الزيارة على هذا الوجه بدعية منهي عنها .

(١) أخرجه الترمذي (١٠٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، وأحمد (٨٤٣٠). قال الترمذي: حسن صحيح، وقال ابن

عدي في (الكامل في الضعفاء) (٨١/٦): لا بأس به، وصححه ابن تيمية في (مجموع الفتاوى) (٣٦٠/٢٤)، وحسنه الألباني في (صحيح سنن الترمذي) (١٠٥٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (١٥٠/٢) (٧٥٤٦). قال الألباني في (تحذير الساجد): وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) الشطر الأول من الحديث رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٧٠٦٧)، والحديث رواه موصولاً أحمد

(٤٠٥/١) (٣٨٤٤)، وابن حبان (٢٦٠/١٥)، والطبراني (١٨٨/١٠)، وأبو يعلى (٢١٦/٩). قال أحمد شاکر

في (المسند) (٣٢٤/٥): إسناده صحيح. وقال الألباني في (تحذير الساجد): صحيح.

(٤) قال الألباني: أي كشف قبره صلى الله عليه وسلم ولم يتخذ عليه الحائل، والمراد دفن خارج بيته، كذا في

(فتح الباري).

والحديث رواه البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩) ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي لم يقم منه: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).

قالت: فلولا ذاك أبرز قبره غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً .

فصل

وكان تحت الطاحون التي قبلي (مسجد النارج) في الماء عند فرّاش الطاحون صنم حجر يُعظم ويستسقى به، فكان بعض الناس يكون عنده مولود صغير وقد طال به المرض، فيأتون به حتى يُغطسوه عند الصنم في الماء ويشفى، ويحطون عند الصنم خُبزاً وحلوى وغير ذلك ، فخرج إليه الشيخ شرف الدين أخو الشيخ تقي الدين فكسّره وخلّص أولاد الناس منه وكان عمود في حارة الفرما يُقال له (العمود المُخلّق) وكان حاله كما ذُكر ، فكسره وأراح الناس منه .

فصل

وكان مع أناس حجارين حجر رخام وقد قمّعه بقصدير وفي وسط الحجر أثر قدم، دائرين به في البلاد، ويدخلون به على بيوت الكبراء والسعداء وفي الأسواق ويقولون لهم : هذا موضع قدم نبيكم، فيبقى الناس يقبلونه ويتبركون به ويعطونهم الأموال لأجل ذلك، فأمسكهم الشيخ، فكسّر ذلك الحجر، وتهارب أصحابه من قدام الشيخ مخافة أن يضرهم .

فصل

وجاء إنسان يوماً بخبز يابس فقال له : « يا سيدي قد جبت هذا من سُماط الخليل على اسمك » ، فقال له : " ما لي به حاجة، أنا حاجتي إلى الدين الذي كان عليه الخليل، ومتابعة ملة الخليل الذي أمر الله أمة محمد بمتابعتها، مالي حاجة بهذا الخبز، والخليل ما عمل هذا، ولا أمر بهذا العدس، ولا كان يطعم ويضيف غير اللحم، قال الله تعالى : ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات : ٢٦] .
وأما العدس فإنه شهوة اليهود، وقد سئل عبد الله بن المبارك رضي الله عنه فقيل له :
جاء أن حديث العدس «قدّسه سبعون نبياً» ^(١)، فقال : " لا « و لا نصف نبي » .

(١) حديث موضوع ، ذكره صاحب مُسْنَدُ الْفَرْدُوسِ ان الطَّبْرَانِي رَوَاهُ فِي مُعْجَمِهِ مِنْ جِهَةِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلَانَةَ عَنْ ثَوْرِ ابْنِ يَزِيدٍ عَنْ مَكْحُولٍ عَنْ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ مَرْفُوعاً ثُمَّ قَالَ وَفِي الْبَابِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنْظِرْ : " التذكرة في الأحاديث المشتهرة للآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة " الحديث العاشر في أكل العدس ص ١٥٤ ، وذكر الخطيب في تاريخ بغداد في ترجمة مسلم بن سالم سئل ابن المبارك عن الحديث الذي في أكل العدس انه قدس على لسان سبعين نبياً فَقَالَ وَلَا عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ وَاحِدٍ إِنَّهُ لَمْ يُؤْذِ مَنْفَعٌ مِنْ يُحَدِّثُكُمْ بِهِ قَالُوا مُسْلِمُ بْنُ سَالِمٍ قَالَ عَنْ مَنْ قَالُوا عَنْكَ قَالَ وَعَنِي أَيْضاً وَوَجَدْتُ بِحُطِّ ابْنِ الصَّلَاحِ هُوَ حَدِيثٌ بَاطِلٌ سُئِلَ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ فَقَالَ وَلَا عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ وَوَاحِدٍ إِنَّهُ لَوْ ذُودَ مَنْفَعٌ مِنْ يُحَدِّثُكُمْ بِهِ قَالُوا مُسْلِمُ بْنُ سَالِمٍ " المرجع السابق ص ١٥٤ ، للمزيد : أنظر المقاصد الحسنة (ص/٤٨٥) ، والفوائد المجموعة (ص/ ١٦١) .

فصل

ولمّا كان الشيخ في ديار مصر^(١) كان ينهى عن اتیان المشاهد وتعظيمها، ويأمر بإتيان المساجد وتعظيمها،

وأعظم المشاهد بالقاهرة مشهد الحسين^(٢) فإن أمره عظيم فإن جميع ما ذكر من البدع والضلال يقام عنده أضعاف ذلك، حتى إذا غلّظ أحد اليمين على الحالف

(١) نقل الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي (في صفحة ١٩٦-١٩٨ صفحة الذهبية ٦٧٣-٧٤٨ هـ)، وغيره أن مسير شيخ الإسلام من دمشق إلى مصر في رمضان سنة ٧٠٥ هجرية، بسعاية أعدائه لدى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، فكتب إلى نائب دمشق الأفرم أن يرسله هو والقاضي نجم الدين ابن صصري على البريد، فوصلا القاهرة يوم الخميس الثاني والعشرين من رمضان، وفي اليوم التالي عُقد له بعد صلاة الجمعة مجلس برئاسة قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف كان فيه هو المدعي وهو الحاكم، وأقيم الشيخ مُرسماً عليه، وحُبس في برج أياماً، ثم نُقل ليلة عيد الفطر إلى الحبس المعروف بالجُبّ بقلعة الجبل هو وأخواه شرف الدين عبد الله، وزين الدين عبد الرحمن، وسُجن وبقي سنة ونصف سنة، وفي شهر ربيع الأول سنة ٧٠٧ هجرية دخل الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى ملك العرب إلى مصر، وحضر بنفسه إلى الجُبّ، وأخرج الشيخ، بعد أن استأذن في ذلك فخرج يوم الجمعة ٢٣ ربيع الأول إلى نائب السلطنة بالقلعة، وعقدت له مجالس مناظرة كان القضاة يتهربون منها بحجة المرض وغيره، وأقام الشيخ بدار ابن شقير بالقاهرة، ووصلت الأخبار إلى دمشق بإطلاقه فكان السرور عاماً شاملاً، وأقام بمصر يُقري العلم ويجتمع عنده خلق، وتكلم في الاتحادية القائلين بوحدة الوجود، فأخرج على البريد مساء الأربعاء ١٢ شوال سنة ٧٠٧ هـ، إلى بلاد الشام، ثم رده في يوم الخميس ١٣ منه وهو على مرحلة من مصر، وسجنوه أولاً بسجن الحاكم بحارة الديلم في ليلة الجمعة ١٩ شوال، ووجد المحابيس مشغولين باللهو ويضيعون الصلاة، فمال زال يرغبهم في الخير حتى صار الحبس بما فيه خيراً من الزوايا والمدارس، وكثر المترددون على الحبس، والظاهر أنه نقل من هنا إلى حبس القضاة ولعله هو الذي يُسمى (قاعة الترسيم) فلبث فيه سنة ونصف سنة، وكان أصحابه يدخلون إليه في السر، ثم تظاهروا، فأخرجته الدولة على البريد إلى الإسكندرية، وحُبس ببرج منها، وأُشيع بأنه قتل و، أنه غرق غير مرة، فلما عاد السلطان (الناصر) من الكرك وشرّد أصداده بادر باستحضار الشيخ إلى القاهرة مكرماً واجتمع به وحادثه وسارّه بحضرة القضاة والكبار وزاد في إكرامهن ونزل وسكن في دار، واجتمع بعد ذلك بالسلطان، فلما قدم السلطان إلى الديار الشامية لكشف العدو عن الرحبة عاد الشيخ إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ (محب الدين)

(٢) لم يكن مشهد السيدة زينب معروفاً يومئذ، وإنما أحدث له هذا البناء عبد الرحمن كتحدا سنة ١١٧٣ هـ (محب الدين)

يُحلفه عند مشهد الحسين، فكان الشيخ ينهاهم عن ذلك وينكره بجنابه وحاله، وقال :
إنَّ السلف ومن اتبعهم كانوا إذا حَلَفُوا أحداً وغلَّظوا عليه اليمين يحلفونه بين المحراب
والمنبر، ولم يحلفوه عند قبور أو أثر .

قال : وأما الحسين^(١) - رضي الله عنه ، وعن سلفه ولعن قاتله - فما حُمل رأسه إلى
القاهرة فإن القاهرة بناها الملك المُعز في أوائل المائة الرابعة، والحسين عليه السلام
قُتل يوم عاشوراء سنة احدى وستين، ودفنت جثة الحسين حيث قُتل، وقد روى
البخاري في "تاريخه" «أن رأس الحسين حُمل إلى المدينة ودُفن بها في البقيع عند
قبر أمه فاطمة "رضي الله عنها"» ، وبعض العلماء يقول أنه حُمل إلى دمشق ودُفن
بها، فبين مقتل الحسين وبين بناية القاهرة نحو مائتين وخمسين سنة، فإنه من
المتواتر أنَّ القاهرة بُنيت بعد بغداد ، وبعد البصرة والكوفة وواسط ، فأين هذا من
هذا؟!

وقد ذكر صاحب الكتاب الذي سمَّاه : « العَلَمُ المشهور ، في فضل الأيام والشهور »^(٢)
وصنَّف هذا الكتاب للملك الكامل - رحمه الله - ذكر فيه أنَّ هذا المشهد
بناه بنو عبيد الملاحدة الزنادقة ملوك مصر في أواخر سنة خمسين وخمسائة،
وقَوَّض الله دولة بني عبيد بعد بنائهم لهذا المشهد بنحو أربع عشرة سنة، وهذا مشهد
الكذب واليمين، ما هو مشهد الحسين .

وكلام العلماء في ذم عبيد القداح مشهور، وفي ذم مذاهبهم وما كانوا عليه، قال
الشيخ أبو حامد الغزالي : «ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض».

(١) سيد الشهداء الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه (٤ - ٦١هـ) .

(٢) هو ابن دحية الكلبي (ت ٦٤٣هـ) ، والكتاب لا يزال مخطوطاً ، ومنه عدة نسخ .

وكان الشيخ أبو عمرو عثمان بن مرزوق^(١) - رحمه الله - في زمن بني عبید في ديار مصر، وكان يُفتي أنه «لا تحل ذباح بني عبید ولا نكاحهم، ولا يُصلى خلفهم، وكان يغلظ في أمرهم» وبلغ نور الدين بن زنكي حالهم وما هم عليه، فسأل العلماء في قتالهم وأخذ البلاد منهم، فأفتاه العلماء بذلك، وكُتِبَتْ بذلك محاضر وأُثْبِتَتْ على الحكام، فسَيَّر صلاح الدين ومعه جيش عظيم فغزاهم وفتح البلاد منهم، وبعض الجهال يظن أن بني عبید كانوا شرفاء من ذرية فاطمة^(٢)، وأنهم كانوا صالحين، وإنما زنادقة ملاحدة قرامطة باطنية واسماعيلية ونصيرية، ومن عندهم طلع الرفض إلى الشام، وإلا قبل ذلك ما كان يُعرف الرفض في الشام وبقاياهم في ديار مصر إلى اليوم^(٣) وكانت قصورهم بين القصرين، وكانوا ينادون «كل من لعن وسب، فله

(١) عثمان بن مرزوق بن حميد بن سلام القرشي (١٣١-٢٢٤ هـ).

الفقيه، العارف، الزاهد، أبو عمرو. نزيل الديار المصرية: صاحب شرف الإسلام عبد الوهاب بن الجيلي بدمشق، وثقفه واستوطن مصر وأقام بها إلى أن مات، وأفتى بها ودرس وناظر، وتكلم على المعارف والحقائق. وانتهت إليه تربية المريدين بمصر. وانتمى إليه خلق كثير من الصلحاء، وأثنى عليه ترجمته في الذيل على طبقات الحنابلة، وسير أعلام النبلاء (٤١٨/١٠)، وكنيته أبو عمرو واسمه عثمان وضبطه الذهبي خطأ (٢) قال القاضي ابن خلكان في ترجمة المهدي العبيدي من كتابه (وفيات الأعيان): أن أهل العلم بالأنساب ينكرون دعواه في النسب، وزوج أم المهدي هو الحسين بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح، قال: وسُمي قداحاً لأنه كان كحالاً يقدح العين إذا نزل فيها الماء.

وفي (مختصر الفرق بين الفرق) ص ١٧٠-١٧١ أن نفراً عُرفوا بآل حمدان مختار اجتمعوا مع الملقب بديدان - وهو محمد بن الحسين - وميمون بن ديسان (أي القداح) في سجن والي العراق وأسسوا في ذلك السجن مذهب الباطنية، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن، وابتدأ ديدان بالدعوة من جهة الجبل فدخل في دينه جماعة من أكراد الجبل، ثم رحل ميمون إلى ناحية المغرب وانتسب في تلك الناحية إلى عقيل بن أبي طالب، فلما دخل دعوته قوم من غلاة الرافضة والحلولية ادّعى أنه من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، فقبل الأغبياء منه، مع علم أصحاب الأنساب بأن محمد بن اسماعيل بن جعفر مات ولم يُعقب، ثم ظهر سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبید الله بن ميمون القداح فقال لأتباعه: أنا عبید الله بن الحسين بن ميمون القداح فقال لأتباعه: أنا عبید الله بن الحسين بن ميمون بن محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق، ثم ظهرت فتنته بالمغرب، قال المصنف أولاده اليوم (أي عصر مؤلف الفرق بين الفرق) مسئولون على أعمال مصر (محب الدين).

(٣) أي أوائل القرن الثامن الهجري، زمن كتابة هذه الرسالة (محب الدين).

دينار وأردب» فبينما إنسان منهم يلعن عائشة ، وإنسان مغربي أنكر عليه، فتحاملوا إلى عند الحاكم، فقال له الحاكم: « لما أنكرت عليه؟ » ، قال المغربي : « إِنَّ امْرَأَةَ جدي اسمها عائشة، وقد ربنتي وأحسننت إليّ، فلما سمعته يلعنها ما هان عليّ، فقال له الحاكم : « ذا ما يلعن امرأة جدك أنت ، ذا يلعن امرأة جدي أنا . » . فقال له المغربي : « منك إليه ! » .

ورأيت رجلاً من أهل القاهرة جاء إلى الشيخ بالقاهرة بعد مجيئه من اسكندرية ^(١) فقال له : « إِنَّ أَبِي حَدَّثَنِي عَنْ أَبِيهِ أَنَّ هَذَا الْمَشْهَدَ بَنَاهُ بَنُو عُبَيْدٍ ، وَأَنَّ رَأْسَ الْحُسَيْنِ مَا جَاءَ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ ، لَكِنْ جَرَّتْ لِي وَاقِعَةٌ وَأَنَا صَغِيرٌ كُنْتُ أَجْرِي فَوْقَ سَطْحِ هَذَا الْمَشْهَدِ ، وَمَا لَهُ عِنْدِي حُرْمَةٌ بِمَا حَدَّثَنِي أَبِي عَنْهُ ، فَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ لَيْلَةً وَأَنَا أَرَى عَجُوزًا زُرْقَاءَ الْعَيْنَيْنِ شَمَطَاءَ الرَّأْسِ ، وَمَعَهَا قَيْدٌ ، فَحَطَّتْهُ فِي رِجْلِي وَقَالَتْ : تَتُوبُ وَلَا تَعُودُ تَجْرِي فَوْقَ سَطْحِ الْمَشْهَدِ؟ فَقُلْتُ : التُّوبَةُ ، التُّوبَةُ ، مَا بَقِيَتْ أَعُودُ فَقَعَدْتُ وَأَنَا مَرْعُوبٌ » ، فَقَالَ الشَّيْخُ : " وَهَذَا أَيْضًا حُجَّةٌ عَلَى صِحَّةِ مَا أَقُولُهُ فَإِنَّ هَذِهِ شَيْطَانَةُ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَهِيَ الَّتِي تَزِينُهُ لِلنَّاسِ ، وَكَذَلِكَ لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بِقَطْعِ (الْعُرَى) فَقَالَ لَهُ : لَمَّا قَطَعْتَ الْعُرَى أَيُّ شَيْءٍ رَأَيْتَ خَرَجَ؟ فَقَالَ لَهُ : خَرَجَتْ مِنْهَا عَجُوزٌ شَمَطَاءٌ هَارِبَةٌ نَحْوَ الْيَمَنِ ، أَلِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تِلْكَ شَيْطَانَةُ الْعُرَى » ^(٢) ، وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ غَيْرَ مَرَّةٍ يَحْكِيهَا لِلنَّاسِ .

(١) كان مجيئه من الاسكندرية إلى القاهرة في شوال سنة ٧٠٩ هـ (محب الدين) .

(٢) روى النسائي (١١٤٨٣) عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ ، قَالَ : لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُرَى ، فَأَتَاهَا خَالِدٌ ، وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمَرَاتٍ ، فَقَطَعَ السَّمَرَاتِ ، وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : (ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا) ، فَارْجَعَ خَالِدٌ فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَجَبَتْهَا ، أَمْعَنُوا فِي الْجَبَلِ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : يَا عُرَى يَا عُرَى ، فَأَتَاهَا خَالِدٌ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُزَيَانَةٌ ، نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا ، تَحْتَفِئُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا ، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : (تِلْكَ الْعُرَى) ، وَهَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ ، وَحَسَنُهُ الشَّيْخُ مَقْبَلُ الْوَادِعِيِّ فِي " الصَّحِيحِ الْمُسْنَدِ " (٥٣٣) . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : " قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ : " وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ اتَّخَذَتْ مَعَ الْكُعْبَةِ طَوَاعِيَّتَ وَهِيَ بَيُوتٌ تُعْظِمُهَا كَتُعْظِمُ الْكُعْبَةَ بِهَا سَدَنَةٌ وَحُجَابٌ وَتُهْدِي لَهَا كَمَا يُهْدَى لِلْكُعْبَةِ ، وَتَطُوفُ بِهَا

فصل في كشف حال بني عبيد

سمعت الشيخ غير مرة في مجالسه يقول : زُرت يوماً المارستان المنصوري^(١)

كطوافها بها، وتَنَحَّرُ عَنْهَا ، وَهِيَ تَعْرِفُ فَضْلَ الْكَعْبَةِ عَلَيْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَسْجِدُهُ : فَكَانَتْ لِقَرِيشٍ وَلِبْنِي كِنَانَةَ الْعُرَى بِنَخْلَةٍ، وَكَانَتْ سَدَنَتْهَا وَحُجَابُهَا بَنِي شَيْبَانَ مِنْ سُلَيْمٍ ، خُلَفَاءَ بَنِي هَاشِمٍ .

قُلْتُ (ابن كثير) : بَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، فَهَدَمَهَا وَجَعَلَ يَقُولُ : يَا عُرَى كُفْرَانِكَ لَا سُبْحَانَكَ ... إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ " انتهى من " تفسير ابن كثير " (٧ / ٤٢٣) . وقال الفيروزآبادي رحمه الله :

" العزى : صَنَمٌ ، أَوْ سَمَرَةٌ (شجرة) عَبَدَتْهَا غَطَفَانُ ، أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا ظَالِمٌ بَنُ أَسَدَ ، فَوْقَ ذَاتِ عِرْقٍ إِلَى الْبُيُوتَانِ بِتِسْعَةِ أَمْيَالٍ ، بَنَى عَلَيْهَا بَيْتًا ، وَسَمَّاهُ بَسًا . وَكَانُوا يَسْمَعُونَ فِيهَا الصَّوْتِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، فَهَدَمَ الْبَيْتَ ، وَأَحْرَقَ السَّمَرَةَ " انتهى من " القاموس المحيط " (ص / ٥١٧) .

(١) " البيمارستان " لفظة فارسيَّة الأصل مُركَّبة من كلمة "بیمار" وتعني مريض أو مُصاب، و"ستان" وتأتي بمعنى دار. وبهذا يكون معنى "بيمارستان" "دار المرضى"، واختُصرت فيما بعد في الاستعمال فأصبحت تُلقب "مارستان". وأُطلقت هذه اللفظة على المستشفيات في العصور الإسلامية وأخذت أحياناً تسمية أخرى، هي "دار الشفاء" وهي بمثابة المستشفيات العامة التي تعالج فيها جميع الأمراض الباطنية والجراحية والزَّمَدِيَّة والعقلية. ولما أصابتها الكوارث هجرها المرضى إلا من المجانين حيث لم يكن لهم مكان سواها فأصبحت الكلمة مرتبطة بهؤلاء المرضى فقط ولقد انتشرت البيمارستانات انتشاراً كبيراً في العالم الإسلامي.

ويستعمل المغاربة لفظ بيمارستان بمعنى بيمارستان للأمراض العصبية فقط، ولم يتم العثور على أي مرادف لكلمة البيمارستان في المصادر التاريخية ولم يستخدم المسلمون سوى لفظ كلمة البيمارستان، حتى نهاية العصر العباسي ، وفي مصر يطلق العامة كلمة (مورستان) على مستشفى الأمراض العقلية .

أنظر: محمد عَبْدُ الْحَيِّ بن عبد الكبير الكتاني (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، الترتيب الإدارية أو نظام الحكومة النبوية، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ط ، د.ت، ٢٩٧/١.

أما (المارستان المنصوري) يسمى هذا البيمارستان أيضاً دار الشفاء أو بيمارستان قلاوون، ويقع بخط بين القصرين من مدينة القاهرة، وكان قاعة للسيدة الشريفة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد وأخت الحاكم بأمر الله منصور، ثم عرف بدار الأمير فخر الدين جهاركس بعد زوال الدولة الفاطمية وبتدريج، ثم صارت للملك المفضل قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب. فاستقر بها هو وذريته فصار يقال لها الدار القطبية. يعود تاريخ بناء البيمارستان إلى عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م. وكان سبب بنائه أن الملك المنصور لما توجه وهو أمير إلى غزاة الروم في أيام الظاهر بيبرس، أصابه بدمشق قولنج عظيم، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من البيمارستان الكبير النوري، فبرأ وركب حتى شاهد البيمارستان فأعجب به ونذر إن آتاه الله الملك أن يبني بيمارستان. فلما تولى السلطنة أخذ في عمل ذلك فوقع الاختيار على الدار القطبية، فندب الطواشي حسام الدين بلالاً المغيثي للكلام في شرائها فاستمر الأمر على ذلك حتى أنعمت مؤسسة خاتون ببيعها على أن تعوض عنها بدار، فعوضت قصر الزمرد برحبة باب العيد مع مبلغ من المال حمل إليها، ووقع البيع على هذا. ثم ندب السلطان الأمير سنجر الشجاع للعمارة فأخرج النساء من الدار القطبية، وجمع صنّاع مصر

فجاء إلى أناس فقالوا لي تصدق وزر المارستان العتيق، فرحت معهم أزوره، فقالوا لي : ألا تزور قبور الخلفاء؟ - يعنون بني عبيد- فرحت معهم إلى قبورهم، فوجدت قبورهم إلى القطب الشمالي، فتكلم عليهم وعلى مذهبهم، قال الحاضرون : نحن نعتقد أن هؤلاء قوم صالحون ، لأننا إذا مغلّت عندنا الخيل ^(١) نجئ بها إلى قبور هؤلاء فتبرأ فلولا أنهم صالحون ما برأت الدواب من المغل عند قبورهم ، فقلت : وهو أيضاً حجة على صحة ما أقوله فيهم، فإن المغل برد يحصل للدواب ، فإذا جئ بها إلى قبور اليهود والنصارى في الشام وإلى قبور المنافقين كالقرامطة والإسماعيلية والنصيرية، فإن الدواب إذا سمعت أصوات المعذبين في قبورهم تفرع فيحصل لها حرارة تذهب بالمغل الذي حصل لها، «وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوماً راكباً على بغلته فحادث حتى كادت أن تلقيه من ظهرها، فقالوا: ما شأنها يا رسول الله ؟ فقال : إنها سمعت أصوات يهود تعذب في قبورها ، وقال : إنهم ليعذبون في قبورهم عذاباً تسمعه البهائم» ^(٢)

ويتقدم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم في الدار القطبية، ومنعهم أن يعملوا لأحد شغلاً وشدد عليهم في ذلك، وكان مهياً فلزموا العمل عنده ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد الصوان والعمد الرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع وغير ذلك. وصار يركب إليها كل يوم وينقل الأنقاض المذكورة على العجل إلى البيمارستان، ويعود إلى البيمارستان فيقف مع الصناع على الأساقيل حتى لا يتوانوا في عملهم وأوقف ممالئكه بين القصرين، وكان إذا مر أحد ولو عظم ألزموه أن يرفع حجراً ويلقيه في موضع العمارة فينزل الجندي والرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك فترك أكثر الناس المرور هناك. وقد نقل من قلعة الروضة ما يحتاج إليه من العمد الصوان والعمد الرخام التي كانت قبل عمارة القلعة بالبرابي وغير ذلك. ولقد تم الانتهاء من أمر العمارة في أسرع = مدة وهي أحد عشر شهراً وأيام، وكان الشروع في بنائها ببيمارستاناً في أول ربيع الآخر عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م. كما أتم معها المدرسة المنصورية والقبّة، فكانتا ضمن مجموعته البيمارستان والمدرسة والقبّة.

للمزيد أنظر: مؤمن أنيس البابا، البيمارستانات الإسلامية حتى نهاية الخلافة العباسية، رسالة ماجستير بإشراف الأستاذ الدكتور: رياض مصطفى شاهين، غزة، الجامعة الإسلامية، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ٤٥ و ٤٦ و ٤٧.

(١) المغل : مغص يأخذ الدواب (محب الدين) .قلت : المغل : مغص يصيب الدواب إذا أكلت التراب مع العلف.

(٢) روي "صحيح مسلم" عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: "بينما النبي صلى الله عليه وسلم في حائط(بستان) لبني النجار على بغلة له، ونحن معه، إذ حادت به(مالت عن الطريق ونفرت وفزعت. فكادت تلقيه)، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: (من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟) فقال رجل: أنا، قال: فمتى

فما يروح أصحاب الدواب بها إلى قبر الشافعي ولا إلى قبر أشهب^(١)
فإنَّ عند قبورهم تنزل الرحمة، وتكلم شيئاً كثيراً من هذا الجنس ما ينحصر، وهذا شيء
منه .

فصل

ولمَّا كان الشيخ في «قاعة الترسيم»^(٢) دخل إلى عنده ثلاثة رهبان من الصعيد،
فناظرهم وأقام الحجة بأنَّهم كفار وما هم على الدين الذي كان عليه إبراهيم
والمسيح^(٣) فقالوا له : نحن نعمل مثل ما تعملون، أنتم تقولون بالسيدة نفيسة ونحن
نقول بالسيدة مريم، وقد أجمعنا نحن و أنتم على أن المسيح ومريم أفضل من

مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراف، فقال: (إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها، فلولا ألا تدافنوا لدعوتُ الله أن
يُسمِعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه) ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: (تَعَوَّدُوا بالله من عذاب النار) ، قالوا:
نعوذ بالله من عذاب النار، فقال: (تَعَوَّدُوا بالله من عذاب القبر) قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: (تَعَوَّدُوا
بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن) قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: (تَعَوَّدُوا بالله من
فتنة الدَّجَال) ، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدَّجَال".

(١) هو أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي العامري الجعدي (ولد سنة ١٤٥ هـ وتوفي سنة ٢٠٤ هـ)
كان فقيه الديار المصرية في القرن الثاني للهجرة، وكان صاحب الامام مالك، قال الإمام الشافعي :
« ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه » . قيل : اسمه مسكين ، وأشهب لقب له ، مات بمصر
(محب الدين).

(٢) التَّرْسِيمُ : التَّضْيِيقُ عَلَى الشَّخْصِ، وَتَحْدِيدُ حَرَكَتِهِ، فِي مَكَانٍ مُّحَدَّدٍ، أَوْ بِإِقَامَةِ حَافِظٍ عَلَيْهِ، بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يَذْهَبَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرٍ أَنْظَر : مغني المحتاج للشربيني، ٣٧٩/٤،
وقد شرحه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى لابن تيمية، ٣٩٩/٣٥. ولقد تنازع العلماء من أصحاب أحمد
وغيرهم هل يتخذ الإمام حبساً؟ على قولين : فمن قال : لا يتخذ حبساً ، قال : يعوقه بمكان من الأمكنة ، أو
يُقَام عليه حافظ، وهو الذي يسمى الترسيم " للمزيد أنظر : الإقناع في مسائل الإجماع : (٢٠٨/٢) -
تحفة الحبيب على شرح الخطيب (حاشية الجبرمي على الخطيب) : (١٢٠/٣) - إعانة الطالبين على حل
ألفاظ فتح المعين : (١٨٨/٣) - الموسوعة الفقهية الكويتية : (١٩٢/١١) - العين : (٢٥٢/٧) - معجم
مقاييس اللغة : (٣٩٣/٢) - المحكم والمحيط الأعظم : (٤٩٣/٨) - تاج العروس : (٢٥٧/٣٢) - المعجم
الوسيط : (٣٤٤/١)

(٣) لشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) في أربعة أجزاء بأكثر من ١٤٠٠
صفحة طبع في القاهرة سنة ١٣٢٢ هجرية دل به على أنه لا نظير له في فهم التوراة والإنجيل وحسن الاستدلال
بهما وبيان الحقائق عنهما ، وقد ألفه جواباً على كتاب ورد إليه من قبرص في هذا الموضوع (محب الدين).

الحسين ومن نفيسة، وأنتم تستغيثون بالصالحين الذين قبلكم ونحن كذلك، فقال لهم :
 وأن من فعل ذلك ففيه شبه منكم، وهذا ما هو دين إبراهيم الذي كان عليه، فإن الدين
 الذي كان إبراهيم عليه ، فإنَّ الدين الذي كان إبراهيم عليه ألا نعبد إلا الله وحده، لا
 شريك له ولا ندَّ له ، ولا صاحبة له ، ولا نشرك معه ملكاً ولا شمساً ولا قمراً ولا
 كوكباً، ولا نشرك معه نبياً من الأنبياء ولا صالحاً

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم : ٩٣]

وإنَّ الأمور التي لا يقدر عليها غير الله لا تطلب من غيره، مثل إنزال المطر،
 وإنبات النبات، وتفريج الكربات، والهدى من الضلالات، وغفران الذنوب، فإنَّه لا
 يقدر عليه إلا الله والأنبياء عليهم الصلاة والسلام تؤمن بهم ونعظمهم ووقرهم ونتبعهم
 ونصدقهم في جميع ما جاءوا به ونطيعهم كما قال نوح وصالح وهود وشعيب

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ [نوح : ٣] فجعلوا العبادة والتقوى لله وحده، فإن
 طاعتهم من طاعة الله ، فلو كفر أحد بنبي من الأنبياء وآمن بالجميع ما نفعه إيمانه
 حتى يؤمن بذلك النبي، وكذلك لو آمن بجميع الكتب وكذب بكتاب كان كافراً حتى
 يؤمن بذلك الكتاب وكذلك الملائكة واليوم الآخر.

فلما سمعوا ذلك منه قالوا : الدين الذي ذكرته خير من الدين الذي نحن عليه وهؤلاء
 عليه، ثم انصرفوا من عنده .

فصل

لمّا كان الشيخ في «قاعة الترسيم»، وكان الشيخ العارف القدوة شمس الدين الدباهي ^(١) قد طلع من الشام إلى مصر حتى يُصلح بين الشيخ وبين الشيخ نصر المنبجي ^(٢)، فكتب ورقة فيها: " الطفيلي على الله محمد بن الدباهي يسأل الشيخين الصالحين - شيخ المشايخ أبي الفتح نصر المنبجي وشيخ الإسلام أحمد بن تيمية - أنهما يتفقان على طاعة الله ورسوله بحسب ما يمكنهما " وذكر أشياء يلتزمها بحسب الإمكان ويتفقان عليها، وجاءت الورقة إلى الشيخ فقال: " إني أجيب إلى ذلك " فراح بها إلى الشيخ نصر فوجد عنده المشايخ التدامرة ^(٣): أبا بكر والشيخ إبراهيم أولاد بروان ، فقام الشيخ نصر من مجلسه وأقعد الشيخ شمس الدين فيه وعظّمه تعظيماً كبيراً ، فأوقفه على الورقة ، فقال له : " يا سيدي ولما كتبت إلى الشيخ مثل هذه وما سُمع بعد منا كلام كثير ؟ " فقال له : " أكتب أنك أجبت إلى ذلك " فقال : " إن كتب الشيخ كتبْتُ " فقال له : " الله على ما تقول وكيل ؟ " ، فقال : " نعم " ، فسيّر الورقة إلى الشيخ ، فكتب : « أجبت إلى ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وكتبه أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية »

(١) هو محمد بن أحمد بن أبي نصر الدباهي البغدادي (ت ٧١١ هـ) ، الذيل على طبقات الحنابلة (٣٦١/٢) (٢) نصر المنبجي (..... / ٧١٩ هـ) ، كان صوفياً من أبرز أعداء شيخ الإسلام رحمه الله في عصره، رجل سعى في أنواع المكائد على ابن تيمية - رحمه الله - لكن غيظه لم يزل يزداد ويتأجج. ذلكم هو نصر المنبجي ، وذكر ابن حجر - رحمه الله - مبلغ عداوة ذلك الرجل لابن تيمية رحمه الله وسبب تلك العداوة بقوله: (وكان من أعظم القائمين عليه الشيخ نصر المنبجي؛ لأنه كان بلغ ابن تيمية أنه يتعصب لابن عربي ، فكتب إليه كتاباً يعاتبه على ذلك، فما أعجبه، لكونه بالغ في الحط على ابن عربي، وتكفيره، فصار هو يحط على ابن تيمية، ويعزي به ببيرس الجاشنكير، وكان ببيرس يفرط في محبة نصر، ويعظمه، وقام القاضي زين الدين بن مخلوف قاضي المالكية مع الشيخ نصر) .

(٣) التدامرة نسبة إلى مدينة " تدمر " ، وهي تقع بالجزء الأوسط من محافظة حمص من دولة سوريا ، ومعنى تدمر " بلد المقاومين " باللغة العمورية ، ومعناها بالآرامية " البلد التي لا تقهر " ، واسمها القديم " تدمرتا " وتعني المعجزة .

وجاب الرسول الورقة إليه ، فقال له الشيخ شمس الدين : " اكتب مع الشيخ مثل ما قلت وعاهدت الله عليه " ، فقال : " ما بقيت أكتب شيئاً " فقال له شمس الدين : " عاديتك في الله " وكشف رأسه وقال : « ثم نبتهل ثم نبتهل » ونزل من عنده .

فسَّير الشيخ نصر إلى والي المدينة أن يكبس بيت ابن تيمية، ويمسك أصحابه ويحطهم في الحبس ، فسَّير الوالي نائبه ، فكبس البيت، وكان قصدهم أن يمسكوا شرف الدين أخا الشيخ، فهربوه من فوق السطح ، وأمسك أصحاب الشيخ وجابهم إلى الوالي، فحطهم في قاعة عند بيته ، ومنعوا الناس من الدخول إلى عند الشيخ ^(١) ثم بعد أيام عُزل الوالي، فسَيَّب الجماعة ، فتأخر عنده زين الدين أخو الشيخ ، فسَّير إلى القاضي ابن مخلوف برسالة الشيخ نصر فأمسك زين الدين وحبسه عند الشيخ في قاعة الترسيم ، وفي تلك الأيام سرق مملوك زين الدين له قماش نفثة ومروزي وغيره وسافر به ، ومرض زين الدين فطلب الحمام فراح السجَّان وخادم الشيخ - إبراهيم بن أحمد الغياني- إلى القاضي ، فقال له خادم الشيخ : هذا إن كان في حبسك فاكتب له ورقة اعتقال، وإن كان ما هو في حبسك فلما ترسم عليه؟ فقال : ما هو في حبسي أنا ،بلغني أنه يطلب يخدم أخاه ما استحلت منعه، فقال له : أخوه رجل تاجر يريد وحده عشرة تخدمه، والشيخ أنا أخدمه، وقد قال نائب السلطان وغيره أنهم ما رسموا بحبس «زين الدين»، والشيخ يفتي بأنَّ القماش الذي سُرِق لزين الدين يلزمك، ويقول السجَّان: ما هو في حبسي، ولا نخليه يطلع، فقال له : إذا نزلت في بيتي غداً تعال إلى عندي مع السجَّان.

(١) نقل ابن عبد الهادي في العقود الدرية (ص ٢٧١) عن الشيخ علم الدين القاسم بن محمد البرزالي الاشبيلي (٦٦٥-٧٣٩) عن معاصري شيخ الإسلام ابن تيمية ما يأتي : في ليلة الأربعاء ٢٠ من شوال سنة ٧٠٨ هجرية طلب الشيخ شرف الدين أخو الشيخ تقي الدين، فوجد زين الدين ، وعنده جماعة فرسم عليهم، ولم يوجد شرف الدين، ثم أطلق الجماعة سوى زين الدين ، فإنه حُمل إلى المكان الذي فيه الشيخ وهو قاعة الترسيم بالقاهرة، ثم أخرج في خامس صفر سنة ٧٠٩ هجرية (محب الدين) .

قال إبراهيم : ثم حدثنا الشيخ بذلك فقال لزين الدين : قم اطلع ، هذا القاضي قد تبرأ من قضيتك .

قال السجّان : حتى يروح إلى القاضي مثلما رأيتم .

فقال الشيخ : إِنَّ الظلمة وأعوان الظلمة يحطون يوم القيامة في توابيت من نار، ثم يقدفون في الجحيم ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿ [الصافات : ٢٢-٢٣] .

فقال : أنا ما أجسر أقول له هذا ، ثم إنّه رسم بأن يخرج، فقال الشيخ : ما بقي

يخرج فأرسل القاضي ابنه محب الدين يسأله مراراً متعددة حتى خرج .

وفي تلك الأيام جاء المشايخ التدامرة - إبراهيم وأبو بكر - إلى الشيخ وقالوا له : " قد اجتمعنا بهؤلاء القائمين عليك، وقالوا قد بُلينا به، والناس تلعننا بسببه، وقد قلنا إنا قد أخذناه بحكم الشرع في الظاهر، فليبصر شيئاً لا يكون علينا ولا عليه فيه رد، فيكتبه لنا ونتفق نحن وهو عليه، فلما قالوا له ذلك .

قال لهم : « أنا منشرح الصدر وما عندي قلق، وهم برّا الحبس فلما يقلقون؟ » وكتب

: « عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ

الله يرضى لكم ثلاثاً أن تعبدوه ولا تشركون به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً

ولا تتفرقوا، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم » رواه مسلم ^(١) فخرجوا من عنده على

ذلك ، ثمّ إنهم بعد أيام جاءوا إلى عنده وقالوا له : قد وقفوا على الورقة وقالوا : هذا

رجل محجّاج حصم وما له قلب يفزع من الملوك، وقد اجتمع بغازان ملك التتر

وكبار دولتهم وما خافهم،

(١) رواه مسلم برقم ١٧١٥ .

ومتى اجتمع بالسلطان والدولة وقرأ عليهم كتاب " الفصوص " ^(١) الذي كانت الفتنة بسببه قتلونا أو قطعونا من المناصب، ويقال عتاً : أنه ما خرج من الحبس حتى دخلتم تحت ما شرط عليكم، ابعثوا أنتم اشرطوا عليه ما أردتم، فإن لم يدخل تحته تكونوا قد عذرت فيه، فلما أخبره بذلك المشايخ التدامرة، قالوا : يا سيدي قد حملونا كلاماً نقوله لك ، وحلفونا أنه ما يطلع عليه غيرنا أن تنزل لهم عن مسألة العرش ^(٢) ومسألة القرآن ^(٣) ونأخذ خطاب بذلك نوقف عليه السلطان ونقول له : هذا الذي حبسنا ابن تيمية عليه قد رجع عنه ونقطع نحن الورقة، فقال لهم : تدعوني أن أكتب بخطي أنه ليس فوق العرش إله يعبد، ولا في المصاحف قرآن ، ولا لله في الأرض كلام ؟ ودقّ بعمامته الأرض وقام واقفاً ورفع برأسه إلى السماء وقال : " اللهم إني أشهدك على أنهم يدعونني أن أكفر بك وبكتبك

(١) كتاب فصوص الحكم لابن عربي ، وهذه فتوى شيخ الإسلام في الكتاب وصاحبه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية " رحمه الله - : (ما تَضَمَّنَهُ كِتَابُ " فُصُوصِ الْحُكْمِ " وَمَا شَاكَلَهُ مِنَ الْكَلَامِ : فَإِنَّهُ كُفْرٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ؛ وَبَاطِنُهُ أَقْبَحُ مِنْ ظَاهِرِهِ . وَهَذَا يُسَمَّى مَذْهَبَ أَهْلِ الْوَحْدَةِ وَأَهْلِ الْخُلُولِ وَأَهْلِ الْإِتِّحَادِ . وَهُمْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمُ الْمُحَقِّقِينَ . وَهَؤُلَاءِ نَوْعَانِ : نَوْعٌ يَقُولُ بِذَلِكَ مُطْلَقًا كَمَا هُوَ مَذْهَبُ صَاحِبِ الْفُصُوصِ ابْنِ عَرَبٍ وَأَمْثَالِهِ : مِثْلُ ابْنِ سَبْعِينَ وَابْنِ الْفَارِضِ . وَالْقَوْنَوِيِّ وَالشَّشْتَرِيِّ وَالتَّلْمِيسَانِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ يَقُولُ : إِنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ وَيَقُولُونَ : إِنَّ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ هُوَ وُجُودُ الْخَالِقِ لَا يُنْبَتُونَ مَوْجُودَيْنِ خَلَقَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ بَلْ يَقُولُونَ : الْخَالِقُ هُوَ الْمَخْلُوقُ وَالْمَخْلُوقُ هُوَ الْخَالِقُ . وَيَقُولُونَ : إِنَّ وُجُودَ الْأَصْنَامِ هُوَ وُجُودُ اللَّهِ وَإِنَّ عِبَادَ الْأَصْنَامِ مَا عَبَدُوا شَيْئًا إِلَّا اللَّهَ . وَيَقُولُونَ : إِنَّ الْحَقَّ يُوصَفُ بِجَمِيعِ مَا يُوصَفُ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ صِفَاتِ النَّقْصِ وَالذَّمِّ . وَيَقُولُونَ : إِنَّ عِبَادَ الْعِجْلِ مَا عَبَدُوا إِلَّا اللَّهَ وَأَنَّ مُوسَى أَنْكَرَ عَلَى هَارُونَ لَكُونِ هَارُونَ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عِبَادَةَ الْعِجْلِ وَأَنَّ مُوسَى كَانَ بِزَعْمِهِمْ مِنَ الْعَارِفِينَ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْحَقَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ بَلْ يَرَوْنَهُ عَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنْ فِرْعَوْنَ كَانَ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ : { أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } بَلْ هُوَ عَيْنُ الْحَقِّ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَقُولُهُ صَاحِبُ الْفُصُوصِ . وَيَقُولُ أَغْظَمُ مُحَقِّقِيهِمْ : إِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ شِرْكٌ لِأَنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ ؛ وَلَيْسَ التَّوْحِيدُ إِلَّا فِي كَلَامِنَا . فَقِيلَ لَهُ : فَإِذَا كَانَ الْوُجُودُ وَاحِدًا فَلِمَ كَانَتْ الزُّوجَةُ حَلَالًا وَالْأُمُّ حَرَامًا ؟ فَقَالَ : الْكُلُّ عِنْدَنَا وَاحِدٌ وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الْمَحْجُوبُونَ قَالُوا : حَرَامٌ . فَقُلْنَا : حَرَامٌ عَلَيْكُمْ)

(٢) أي مسألة الاستواء التي قال فيها الإمام مالك : " الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب "

(محب الدين).

(٣) أنه كلام الله غير مخلوق (محب الدين).

ورسلك ، وأن هذا الشئ ما أعمله ، اللهم أنزل بهم بأسك الذي لا تدره عن القوم
المجرمين ، نفذت فيهم سهام الله ، والله لتقلب دولة بيبرس أسفلها أعلاها ، ويكون
أعز من فيها أذل من فيها ولينتقم الله من الكبير والصغير ، وكم أجد عليهم وما
أدعو عليهم" .

فقلت أنا وشرف الدين بن سعد الدين : شيخ الإسلام الأنصاري ^(١) عرض على
السيف أربع عشرة مرة لا يُقال له " وافقنا" إلا سكت ويقول : أقتل ولا يسعني أن
أسكت عمن خالفني وكان الشيخ سكت عنهم في دمشق ، وما كان جراً شئ من هذا
وهم انفتلوا فينا بالسب القبيح والشتم ، وما عليه أضر من أصحابه ، ثم خرجوا من
عنده ، وبعد ذلك جاء إلى عند الشيخ رجل يُقال له الشيخ «علّي الفراء» له منامات
خوارق فقال : رأيت في منامي كان البحر قد زاد حتى دخل الماء في جميع حارات
المدينة ، وهو أسود مثل القطران وهو يغلي مثل القدر على النار ، والشيخ راكب سفينة
وقد ركب معه جماعة يسيرة وهو يقول : النجاء ، النجاء ، وقد طلعتُ به من باب
سعادة حتى جاءت إلى باب اللوق ، وإذا بالسلطان (سُنقر) راكب فيلاً وخلفه راكب
القاضي ابن مخلوف ^(٢) والشيخ نصر ،

(١) الإمام القدوة ، الحافظ الكبير أبو إسماعيل ، عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن
جعفر بن منصور الأنصاري الهروي (٣٩٦-٤٨١ هـ) ، مصنف كتاب " ذم الكلام " ، وشيخ خراسان من ذرية
صاحب النبي صلى الله عليه وسلم أبي أيوب الأنصاري ، مولده في سنة ست وتسعين وثلاثمائة ، قال ابن
طاهر : سمعته يقول : عرضت على السيف خمس مرات ، لا يقال لي : ارجع عن مذهبك . لكن يقال لي :
أسكت عمن خالفك . فأقول : لا أسكت . وسمعته يقول : أحفظ اثني عشر ألف حديث أسردها سرداً . قال أبو
النضر الفامي : توفي شيخ الإسلام في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة عن أربع وثمانين سنة وأشهر .
ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي [ج ١٨ / ص : ٥١٠]

(٢) هو علي بن مخلوف ابن ناهض بن مسلم النويري قاضي القضاة زين الدين أبو الحسن المالكي
(..... / توفي ٧١٨ هـ) ، حكم بالديار المصرية نيافاً وثلاثين سنة ، سمع المرسي وروى عنه وسمع الشيخ عز
الدين بن عبد السلام ، وغيرهما ، وقد أفتى بكفر شيخ الإسلام ابن تيمية قال : (ابن تيمية يقول بالتجسيم وعندنا
من اعتقد هذا كفر ووجب قتله) ، وهذا من قبيح افتراءه وكذبه على شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أنظر " كنز
الدرر وجامع الغرر " لأبي بكر بن عبد الله بن أبيك الدواداري في معرض كلامه عن حوادث عام ٧٠٥ هـ .

وأنا أقول : يا سيدي كيف نعمل حتى تخرج من هذا الكدر الذي نحن فيه إلى البحر الصافي ، وهذا الفيل في طريقنا؟ وأنت تقرأ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [الفيل : ١] إلى آخرها ، وما أصبت السفينة إلا أنها قد صارت في البحر الكبير . ثم بعد أيام جاء إلى عند الشيخ شمس الدين بن سعد الدين الحراني ^(١) وأخبره أنهم يسفرونه إلى الإسكندرية، وجاءت المشايخ التدمرة وأخبروه بذلك ، وقالوا له : كل هذا يعملونه حتى توافقهم ، وهم عاملون على قتلك، أو نفيك ، أو حبسك فقال لهم : " أنا إن قُتلت كانت لي شهادة، وإن نفوني كانت لي هجرة ^(٢) ولو نفوني إلى قبرص لدعوت أهلها إلى الله وأجابوني، وإن حبسوني كان لي معبداً، وأنا مثل الغنمة كيفما تقلبت، تقلبت على صوف، فيئسوا منه وانصرفوا " .

فلما كان بعد صلاة المغرب جاء نائب والي المدينة بدر الدين المحب بن عماد الدين بن العفيف ومعه جماعة . فقال : يا سيدي باسم الله ، فقال الشيخ : إلى أين ؟ قال : إلى الإسكندرية قد رسم السلطان بذلك الساعة .

فقال : لو أخبرتموني بذلك حتى تجهزت للسفر وأخذت معي نفقة .

فقال له : قد أمرت لك ولأصحابك ما يكفيك . فقال له : أنا الليلة ما أسافر .

فقال له : ما يمكنني أن أخالف مرسوم السلطان . فقال له : معك مرسوم بأن تسخطني ؟ فقال : لا . وقام خرج من عنده ، فغلق السجّان باب الحبس ، وراح .

فلما كان ثاني يوم، جاء عبد الكريم ابن أخت الشيخ نصر وحلف أن الشيخ نصر ما عنده علم من هذا، وانصرف فلما كان بعد العصر وقفت أبكي، فقال لي الشيخ: لا تبك، ما بقيت هذه المحنة تبطئ ،

(١) لم أقف على ترجمته .

(٢) ومثل هذا ما نقله الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب (المتوفي سنة ٧٩٥هـ) في ترجمة لشيخ الإسلام من كتابه طبقات الحنابلة عن شيخه أبي عبد الله شمس الدين ابن القيم أنه سمع شيخ الإسلام يقول : " ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحمت فهي معي لا تفارقني أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة " .

فقلت له : أفتح لك في المصحف^(١) .

(١) من العجيب أن شيخ الإسلام سُئل عن هذه المسألة وكان جوابه كالتالي ، سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن استفتاح الفأل من المصحف فأجاب : " وأما استفتاح الفأل في المصحف: فلم ينقل عن السلف فيه شيء وقد تنازع فيه المتأخرون. وذكر القاضي أبو يعلى فيه نزاعاً: ذكر عن ابن بطّة أنه فعله وذكر عن غيره أنه كرهه ، فإن هذا ليس الفأل الذي يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان يحب الفأل ويكره الطيرة. والفأل الذي يحبه هو أن يفعل أمراً أو يعزم عليه متوكلاً على الله فيسمع الكلمة الحسنة التي تسره: مثل أن يسمع يا نجيب يا مفلح يا سعيد يا منصور ونحو ذلك ، كما لقي في سفر الهجرة رجلاً فقال: (ما اسمك؟) قال : يزيد. قال: (يا أبا بكر يزيد أمرنا) . وأما الطيرة بأن يكون قد فعل أمراً متوكلاً على الله أو يعزم عليه فيسمع كلمة مكروهة : مثل ما يتم أو ما يفلح ونحو ذلك ، فيتطير ويترك الأمر فهذا منهى عنه كما في الصحيح عن معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت: يا رسول الله منا قوم يتطيرون قال: (ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم) فنهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تصد الطيرة العبد عما أراد . فهو في كل واحد من محبته للفأل وكرهته للطيرة إنما يسلك مسلك الاستخارة لله والتوكل عليه والعمل بما شرع له من الأسباب ، لم يجعل الفأل أمراً له وباعثاً له على الفعل ولا الطيرة ناهية له عن الفعل . وإنما يأتى وينتهي عن مثل ذلك أهل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام ، وقد حرم الله الاستقسام بالأزلام في آيتين من كتابه ، وكانوا إذا أرادوا أمراً من الأمور أحوالوا به قداحاً مثل السهام أو الحصى أو غير ذلك وقد علّموا على هذا علامة الخير وعلى هذا علامة الشر وآخر غفل. فإذا خرج هذا فعلوا وإذا خرج هذا تركوا وإذا خرج الغفل أعادوا الاستقسام. فهذه الأنواع التي تدخل في ذلك مثل الضرب بالحصى والشعر واللوح والخشب والورق المكتوب عليه حروف أبجد أو أبيات من الشعر أو نحو ذلك مما يطلب به الخيرة فيما يفعله الرجل ويتركه ينهى عنها لأنها من باب الاستقسام بالأزلام ، وإنما يُسن له استخارة الخالق واستشارة المخلوق والاستدلال بالأدلة الشرعية التي تبين ما يحبه الله ويرضاه وما يكرهه وينهى عنه. وهذه الأمور تارة يقصد بها الاستدلال على ما يفعله العبد : هل هو خير أم شر؟ وتارة الاستدلال على ما يكون فيه نفع في الماضي والمستقبل. وكلاً غير مشروع ، والله سبحانه وتعالى أعلم " انتهى من "مجموع الفتاوى" (٢٣/ ٦٦) ، ويبدو لي أن شيخ الإسلام تراجع عن هذه الفتوى فهو يميل إلى عدم الجواز ، وقد حكى فيه الخلاف ، لأن شيخ الإسلام كان في آخر حياته ، وأجاز فتح المصحف للتناول ، فيكون قد رجع عن فتواه بالتحريم ، وأما ما حكاه العلامة محمد المنجد في موقعه سؤال وجواب فتوى رقم (١٤٥٥٩٦) ، تاريخ النشر : ٢٠١٠-٠٣-٠٦ بقوله : " فتبين بهذا أن أخذ الفأل من المصحف أي فتحه والنظر فيما يخرج ، وبناء التصرف على ذلك ، محرم ، وهو من الاستقسام بالأزلام ، بخلاف الفأل الحسن الذي يأتي بعد مباشرة الإنسان للعمل ، فيسمع كلمة حسنة دون قصد ولا بحث " أي قوله إن الاستفتاح والتناول بالمصحف إنه استقسام بالأزلام فهو خطأ كبير جداً غفر الله له بل سوء فهم لكلام الشيخ ، فليس هو المقصود بالاستقسام بالأزلام فحاشا لله أن يشبه كلام الله بذلك ، والشيخ قد رجع عن هذه الفتوى قطعاً لأن آخر فعله في حياته الجواز والله أعلى وأعلم .وقد عدّها الشيخ علي محفوظ من البدع أنظر : " الإبداع في مضار الابتداع" (ص ٧٤) ، و" السنن والمبتدعات " : (ص/١٢٣) ، و " منسك ابن جماعة " .

فقال : افتح .

فطلع قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ

مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾

[النحل : ١٢٧-١٢٨]

فقال : افتح في موضع آخر ، فطلع قوله تعالى :

﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠] .

فقال : افتح آخر .

فطلع قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ... ﴾ [الفتح : ٢٩] إلى آخرها .

فلما صلينا المغرب بقي يدعو بدعاء الكرب ، وأنزل الله عليه من النور والبهاء ،

والحال شيئاً عظيماً وأشرت إلى المحبسين .

كأن وجهه شمع يجلوه مثل العروس ، حتى إذا راق الليل جاء نائب الوالي فقال :

« باسم الله ، باسم الله » ، فبقوا يودعون ويكفون ، ويدعون عليهم بدعاء مختلف ، أقله

أن يسلبهم الله نعمته .

وركب على باب الحبس ، فقال له إنسان : « يا سيدي هذا مقام الصبر » .

فقال له : « بل هذا مقام الحمد والشكر ، والله أنه نازل على قلبي من الفرح والسرور

شيء لو قُسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم ، ولو أن معي في هذا الموضع

ذهباً وأنفقته ما أديت عُشر هذه النعمة التي أنا فيها » ^(١) .

وخرج من باب سعادة ، وركبنا في البحر إلى ذلك البر فلقينا أمير يُقال له بدر الدين

طبر «أمير عشرة مقدم مائة» ، فمنعنا من السفر مع الشيخ .

(١) ونقل الحافظ ابن رجب عن شيخه شمس الدين بن القيم أن شيخ الإسلام كان يقول في حبسه : « لو بذلت

ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة » أو قال : « ما جازيتهم على ما ساقوا إلى من الخير » .

قال: ما معي مرسوم أن يجئ أحد مع الشيخ^(١) .

فقال الشيخ : " يا إبراهيم انزل إلى الشام، وقل لأصحابنا : وحق القرآن - ثلاث مرات- ما بقيت هذه المحنة تبطئ، وتتفرج قريباً فوق ما في النفوس، ويقلب الله مملكة ببيرس^(٢) أسفلها أعلاها وليجعلن الله أعز من فيها أذل من فيها " .

فلما رجعنا بعد أن ودعناه انكسر في تلك الليلة البحر ونقص الماء، وغلا الخبز وغيره، وما بقي شئ يلتقي، وبقيت الناس تلعنهم ويقولون : غرقوا ابن تيمية في البحر، ما بقي يطلع ، فطلع جماعة من أكابر الإسكندرية وصلحائها التقوا الشيخ،

(١) قال الشيخ علم الدين البرزالي : " وفي الليلة الأخيرة من شهر صفر (سنة ٧٠٨هـ) ، وهي ليلة الجمعة توجه الشيخ تقي الدين من القاهرة إلى الإسكندرية مع أمير مَقْدَم، ولم يمكن أحد من جماعته من السفر معه، ووصل هذا الخبر إلى دمشق بعد عشرة أيام من جماعته من السفر معه ، ووصل هذا الخبر إلى دمشق بعد عشرة أيام فحصل التألم لأصحابه ومحبيه، وضافت الصدور، وتضاعف الدعاء له وبلغنا أن دخوله الإسكندرية كان يوم الأحد ، دخل من باب الخوخة إلى دار السلطان، ونقل ليلاً إلى برج في شرق البلد، ثم وصلت الأخبار أن جماعة من أصحابه توجهوا إليه بعد ذلك ، وصار الناس يدخلون إليه ويقرأون عليه ويتحدثون معه، وكان الموضوع الذي هو فيه فسيحاً متسعاً(محب الدين) .

(٢) هو ركن الدين ببيرس الجاشنكير، وقد تم فيه ما قاله شيخ الإسلام، وزال سلطانه والشيخ في السجن ، وعقب ذلك خرج الشيخ من سجنه مكرماً واحتفى به السلطان الملك الناصر حفاوة فوق الذي يكون للملوك ،وأرد أن يعاقب الذين آذوه فمنعه الشيخ من ذلك، وكان السلطان الناصر قد خلع بتواطؤ أعدائه فمنعه الشيخ من ذلك، وكان السلطان الناصر قد خلع بتواطؤ أعدائه من الحكام ورجال الجيش مع العلماء الرسميين والفقهاء، وبايعوا الملك المظفر ببيرس الجاشنكير ، وكانت إقامة الناصر في تلك الفترة بمدينة الكرك برشق الأردن، ثم انقلبت الحال على أعدائه فعاد إلى أريكة الحكم، والعجيب أن الذين توطأوا عليه من الحكام والعلماء الرسميين هم الذين كانوا متواطئين أيضاً على شيخ الإسلام ابن تيمية، ولو شاء الشيخ بعد انقلاب الحال أن يقتص منهم بحقه جزاء بغيهم عليه لفعل، لكنه عفا وصفحن قال قاضي المالكية ابن مخلوف : " ما رأينا أتعى لله من ابن تيمية لم نُبَقْ ممكناً في السعي فيه ، ولما قدر علينا عفا عنا " .

وقعد في البرج الأخضر حتى طلع السلطان الناصر من الكرك، وهرب بيبرس من السلطنة وسُيّر بطلبه مكرماً (١).

«انتهت مذكرات خادم الشيخ رحمه الله تعالى»

(١) قال الحافظ ابن عبد الهادي المقدسي في العقود (٢٧٧) : بقي الشيخ بثغر الإسكندرية ثمانية أشهر مقيماً ببرج مليح نظيف له شباك كان أحدهما إلى جهة البحر، يدخل إليه من شاء ، ويتردد عليه الأكابر والأعيان والفقهاء ، ويقرأون عليه ويستفيدون منه، فلما دخل السلطان الناصر إلى مصر - بعد خروجه من الكرك وقدومه إلى دمشق وتوجهه منها إلى مصر - وكان قدومه يوم عيد الفطر سنة ٧٠٩ هجرية، أنفذ لإحضار الشيخ من الإسكندرية في اليوم الثامن من شوال وخرج الشيخ منها متوجهاً إلى مصر ومعه خلق من أهلها يودعونه ويسألون الله أن يرده إليهم، وكان وقتاً مشهوداً، ووصل إلى القاهرة يوم السبت ١٨ الشهر، واجتمع بالسلطان في يوم الجمعة ٢٤ منه ، وأكرمه وتلقاه في مجلس حفل به قضاة المصريين والشاميين والفقهاء ، وأصلح بينه وبينهم .

رسالتان

من شيخ الإسلام ابن تيمية - وهو في مصر - إلى دمشق أوردتهما الحافظ ابن عبد الهادي في
(العقود الدرية)

الرسالة الأولى - إلى والدته (١)

من أحمد ابن تيمية إلى الوالدة السعيدة، أقر الله عينها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل
كرمه، وجعلها من خيار إمائه وخدمه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل،
وهو على كل شئ قدير، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين، محمد
عبد ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة، وآلاء جسيمة، نشكر الله عليها
ونسأله المزيد من فضله، ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلّت عن
التعداد.

وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لأمر ضرورية متى أهملناها فسد
علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين البعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا
إليكم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم - والله
الحمد - ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً،
بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، وأدعوا لنا بالخير، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا
ولكم وللمسلمين ما فيه الخير في خير وعافية، ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير
والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال .

(١) أمه هي : الشَّيْخَةُ الصَّالِحَةُ الْمُعَمَّرَةُ، سِتُّ النَّعَمِ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَرَّانِيَّةُ، وَالِدَةُ الشَّيْخِ
تَقِيِّ الدِّينِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ، عَمَّرَتْ فَوْقَ السَّبْعِينَ سَنَةً، وَكَانَتْ مِنَ الصَّالِحَاتِ، وَلَدَتْ تِسْعَةَ بَنِينَ، وَلَمْ تُرْزَقْ بِنْتًا قَطُّ،
تُوفِّيَتْ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الْعَشْرِينَ مِنْ شَوَّالٍ، وَدُفِنَتْ بِالصُّوْفِيَّةِ، وَحَصَرَ جَنَازَتَهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ. « ذكرها ابن كثير الدمشقي
في وفيات سنة ٧١٦ هـ

ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر، مستخIRON الله سبحانه وتعالى، فلا يظن
الظانّ أنا نؤثر على قريكم شيئاً من أمور الدنيا قط ، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما
يكون قريكم أرجح منهن ولكن ثم أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من
إهمالها، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

والمطلوب كثرة الدعاء بالخير، فإن الله يعلم ولا نعلم ، ويقدر ولا نقدر، وهو علامّ
الغيوب، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من سعادة ابن آدم استخارته الله ،
ورضاه بما قسم الله له ، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله ، وسخطه بما يقسم
الله له " ^(١)، والتاجر يكون مسافراً فيخاف ضياع بعض ماله، فيحتاج أن يقيم حتى
يستوفيه، وما نحن فيه من أمر يحل عن الوصف، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته ، كثيراً كثيراً، وعلى سائر من بالبيت من الكبار والصغار
وسائر الجيران والأهل والأصحاب واحداً واحداً، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله
على محمد و آله وصحبه وسلم تسليماً .

(١) رواه سعد بن أبي وقاص ، وأخرجه الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٢٨٢/٢) ، وهذا الاسناد ضعيف بهذا
اللفظ ، ويشهد له حديث البخاري عن جابر وعن سعد بن أبي وقاص «أن النبي قال: من سعادة ابن آدم
استخارة الله، ومن سعادة بني آدم رضاه بما قضى الله، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله، ومن شقاوة ابن آدم
سخطه بما قضى الله.» حديث صحيح .

الرسالة الثانية – إلى أصحابه وتلاميذه

بعد حمد الله تعالى، والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم
 أمّا بعد فإن الله – وله الحمد – قد أنعم عليّ من نعمه العظيمة ، ومننه الجسيمة،
 وآلائه الكريمة، ما هو مستوجب لعظيم الشكر، والثبات على الطاعة ، واعتياد حسن
 السير في الضراء ، قال تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفُّورٌ (٩) وَلَئِنْ أَدَقْنَاهُ
 نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ
 صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴾ [هود : ٩-١١]

وتعلمون أنّ الله سبحانه منّ في هذه القضية من المنن - التي فيها من أسباب نصر
 دينه، وعلو كلمته، ونصر جنده، وعِزّة أوليائه وقوة أهل السنة والجماعة، وذل أهل
 البدعة والفرقة، تقرير ما قرّر عندكم من السنّة، وزيادات على ذلك بإِنفتاح أبواب من
 الهدى والنصر والدلائل وظهور الحق لأمم لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، وإقبال
 الخلائق إلى سبيل السنة والجماعة، وغير ذلك من المنن - ما لا بد معه من عظيم
 الشكر، ومن الصبر، وإن كان صبراً في سراء .

وتعلمون أنّ من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين تأليف القلوب ، واجتماع
 الكلمة ، وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى يقول :

﴿فَانْتَبَوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال : ١] .

ويقول : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٣]

ويقول : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف ، وتنتهي عن الفرقة والاختلاف ، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة.

وجماع السنة طاعة الرسول ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة « إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولأه أموركم »

وفي السنن من حديث زيد بن ثابت وابن مسعود - فقيهي الصحابة - عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نَضَرَ الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم » وقوله : « لا يغل » أي لا يحقد عليهن ، فلا يبغض هذه الخصال قلب المسلم ، بل يحبهن ويرضاهن .

وأول ما أبدأ به من هذا الأصل ما يتعلق بي فتعلمون رضي الله عنكم أنني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين - فضلاً عن أصحابنا- بشئ أصلاً، لا باطناً ولا ظاهراً، ولا عندي عتب على أحد منهم ولا لوم أصلاً ، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف ما كان، كل بحسبه ، ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً، أو مخطئاً، أو مذنباً ، فالأول مأجور مشكور، والثاني مع أجره على الاجتهاد فمعفو عنه مغفور له، والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين

فنتطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل كقول القائل : فلان قصر، فلان ما عمل فلان أوزي الشيخ بسببه، فلان كان سبب هذه القضية، فلان كان يتكلم في كيد فلان، ونحو هذه الكلمات التي فيها مذمة لبعض الأصحاب والإخوان ، فإنني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، بل مثل هذا يعود على

قائله بالملام، إلا أن يكون له من حسنة ، وممن يغفر الله له إن شاء ، وقد عفا الله عما سلف .

وتعلمون أيضاً أن ما جرى من نوع تغليظ أو تخشين على بعض الأصحاب والإخوان - مما كان يجري بدمشق، وما جرى الآن بمصر - فليس ذلك غضاضة ولا نقصاً في حق صاحبه، ولا حصل بسبب ذلك تغير منا ولا بغض، بل هو بعد ما عومل به من التغليظ والتخشين أرفع قدراً ، وأنبه ذكراً ، وأحب وأعظم ، وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين التي يصلح بها بعضهم ببعض، فإن المؤمن للمؤمن كالإدين : تغسل إحداها الأخرى ، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما يحمد معه ذلك التخشين .

وتعلمون أنا جميعاً متعاونون على البر والتقوى ، واجب علينا نصر بعضنا بعضاً أعظم مما كان وأشد ، فمن رام أن يؤذي بعض الأصحاب أو الإخوان - لما قد يظنه عومل به بدمشق أو بمصر الساعة أو غير ذلك - فهو الغالط ، وكذلك من ظن أن المؤمنين يبخلون عما أمروا به من التعاون والتناصر فقد ظن ظن السوء

﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم : ٢٨] وما غاب عنا أحد من الجماعة، أو قدم إلينا الساعة أو قبل الساعة، إلا ومنزلته عندنا اليوم اعظم مما كانت وأجل وأرفع .

وتعلمون «رضي الله عنكم» أن ما دون هذه القضية من الحوادث يقع فيها - من اجتهد الآراء ، واختلاف الأهواء ، وتتنوع أحوال أهل الإيمان ، وما لا بد منه من نزغات الشيطان - ما لا يتصور أن يعرى عنه نوع الإنسان ، وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

بل أنا أقول ما هو أبلغ من ذلك ^(١) تُبينها بالأدنى على الأعلى ، والأقصى على الأدنى : تعلمون كثرة ما وقع في هذه القضية من الأكاذيب المفتراة والأغاليط المظنونة ، والأهواء الفاسدة ، وأن ذلك أمر يحل عن الوصف ، وكل ما قيل من كذب وزور فهو - في حقنا - خير ونعمة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١]

وقد أظهر الله من نور الحق وبرهانه ما رد به إفك الكاذب وبهتانه ، فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليّ أو ظلمه وعدوانه، فإنّي قد أحللت كل مسلم ، وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، أريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسه ، والذين كذبوا وظلموا فهم في حل من جهتي، وأما ما يتعلق بحقوق الله فإن تابوا تاب الله عليهم ، وإلا فحكم الله نافذ فيهم ، فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله لكنت أشكر كل من كان سبباً في هذه القضية ، لما يترتب عليه من خير الدنيا والآخرة ، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه وأياديه التي لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم، وأهل العمل الصالح يشكرون على علمهم ، وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم، وأنتم تعلمون هذا من خلقي ، والأمر أزيد مما كان وأؤكد، لكن حقوق الناس بعضهم مع بعض ، وحقوق الله عليهم هم فيها تحت حكم الله . وأنتم تعلمون أنّ الصديق الأكبر - في قضية الإفك التي أنزل الله فيها القرآن - حلف لا يصل مسطح بن أثاثه لأنه كان من الخائضين في الإفك ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]

(١) أي مما تقدم من كلامه عن اختلاف آراء الناس وأهوائهم في مثل هذه القضية وما هو دونها .

فلما نزلت قال أبو بكر : « بلى والله ، إني لأحب أن يفقر الله لي ، فأعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق » (١) .

ومع ما ذكر من العفو والإحسان ، وأمثاله وأضعافه ، فالجهد على ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة أمر لا بد منه :

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾ [المائدة : ٥٤-٥٦] . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، والحمد لله رب

العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما .

تَمَّ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ ،،،

(١) روى ذلك الامام أحمد في مسنده ، والبخاري ومسلم في صحيحهما ، عن عائشة رضي الله عنها ، وهذه الأخلاق الإسلامية لم تعرفها الإنسانية إلا في الإسلام وأهله .

الفهرس

الموضوع
رقم الصفحة

٢.....	مقدمة التحقيق
٣.....	التعريف بكتاب " الكواكب الدراري " لابن عروة الدمشقي
٣.....	العثور في المجلد الحادي والأربعين على هذه المذكرات
٤.....	عملي في الرسالة
٥.....	ترجمة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
١٠.....	مصادر ترجمة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
١١.....	بيان إجمالي لسجن شيخ الإسلام
١٥.....	تراجم ودراسات حول شيخ الإسلام ابن تيمية مرتبة
١٧.....	مقدمة العلامة المحقق محب الدين الخطيب رحمه الله تعالى
١٨.....	وصف لغة المذكرات، ومحافظتنا على ألفاظها العامية
١٨.....	تعليقات الناشر
١٩.....	مقدمة مذكرات خادم الشيخ
٢٠.....	الحديث الموضوع « لو أحسن أحكم ظنه بحجر لنفعه »
٢٠.....	حسن الظن بالله طريق المثوبة وحسن الظن بالأحجار مصير أصحابه إلى النار
٢١.....	البدع التي كانت ترتكب عند العمود المخلق داخل الباب الصغير بدمشق
٢١.....	قيام الشيخ بتكسير هذا العمود وظهور صنمين خلفه
٢١.....	اشاعات الناس بأن عين الفيحة ستقطع!
٢٢.....	كلمة الإمام النووي في هذا العمود ، وفي القبر الذي بجيرون
٢٢.....	بلاطة " مسجد الكف " بالعلافين ، وقيام الشيخ بتكسيورها
٢٣.....	تكسيه صخرة «مسجد النارج»

- كلام الشيخ عن المشاهد والمساجد ٢٤
رقم الصفحة
الموضوع
- زيارة القبور الشرعيّة والبدعيّة..... ٢٤
- تكسير صنم كان تحت الطاحون قبل مسجد النارنج..... ٢٧
- تكسير رخامة زعم الدجالون أن فيها قدم النبي «صلى الله عليه وسلم» ٢٧
- خرافة خبز سماط الخليل : وإنكار الشيخ لها..... ٢٧
- مسير الشيخ إلى مصر في رمضان سنة ٧٠٥ هجرية ، وسجنه فيها..... ٢٨
- نهي الشيخ في مصر عن تعظيم المشاهد وترغيبه بتعظيم المساجد..... ٢٩
- رأس الحسين رضي الله عنه لم يحمل إلى مصر ، وروى البخاري أنه حُمِلَ إلى
المدينة ودفن في البقيع ، وبعض العلماء يقول أنه حُمِلَ إلى دمشق ودفن فيها ٢٩
- مشهد الحسين بمصر بناه بنو عبيد في آخر دولتهم..... ٢٩
- ما قاله مؤلف كتاب " العلم المشهور " في هذا المشهد ٢٩
- كلمة أبي حامد الغزالي في بني عبيد..... ٢٩
- كان أبو عمرو عثمان بن مرزوق يُفتي بكفر بني عبيد وهو في دولتهم..... ٣٠
- بنو عبيد زنادقة، ولم يكونوا أشرافاً فاطميين..... ٣٠
- ندائهم في مصر « من لعن وسب ، فله دينار وأردب»..... ٣١
- كان في المصريين من يعلم أن رأس الحسين لم يجرى إلى مصر ٣١
- شيطانة العزى..... ٣١
- مغص الدواب يبرأ عند قبور المغضوب عليهم..... ٣٣
- فقيه الديار المصرية في القرن الثاني الإمام أشهب بن عبد
العزير..... ٣٤
- ثلاثة رهبان يناقشون الشيخ وهو في قاعة الترسيم..... ٣٤

- مجيء شمس الدين الدباهي من دمشق إلى مصر ليصلح بين شيخ الإسلام والشيخ
 نصر المنبجي ٣٦
- رجوع الشيخ نصر المنبجي عما وعد به الشمس الدباهي..... ٣٧
- تهريب الشيخ شرف الدين بن تيمية عند البحث عنه ليحبس والقبض..... ٣٧
- على الشيخ زين الدين ابن تيمية وحبسه مع أخيه
 طلبهم من الشيخ أن يكتب شيئاً يخرجهم بما تورطوا فيه..... ٣٨
- غضب الشيخ من مطالبته بالرجوع عما يعلمه من الحق..... ٣٩
- رؤيا الشيخ علي الفراء..... ٤٠
- صدور مرسوم بنقل الشيخ إلى الإسكندرية..... ٤١
- التقاؤل من القرآن..... ٤٢
- سفر الشيخ إلى الإسكندرية، وقصر النيل ووقوع الغلاء..... ٤٣
- وصف حالة الشيخ بالإسكندرية ومجيء الفرج الإلهي بعودة الملك الناصر..... ٤٤
- من الكرك .
- وصف للعواقب الحسنة التي انتهت بإطلاق سراح الشيخ..... ٤٤
- رسالة الشيخ من مصر إلى والدته بدمشق..... ٤٦
- رسالة إلى أصحابه وتلاميذه بأن يغفروا للمسيئين إليه وإليهم وبيان عظيم الشأن..... ٤٨
- عن سنة الإسلام في مثل هذه المواقف .